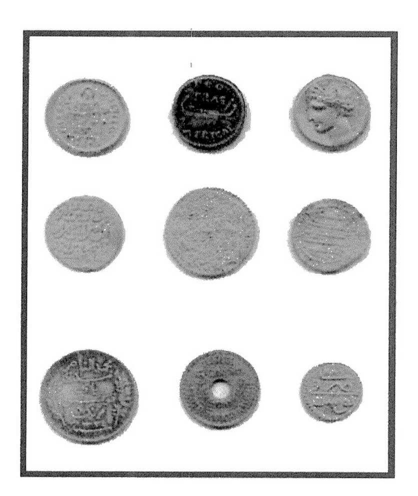


سلسلة م \ علوم إنسانية

مدخل إلى دراسة التاريخ

فريد بن سليمان





مركز النشر الجامعي

فريـــد بن سليمـــان

مدخـــل

إلى دراســـة التـــاريخ

مركـــز النشـــر الجـــامعي
2000

ص.ب 255 ـ تونس ـ ر.أ.ب. 1080 ـ
الهاتف : 000 874 (216.1) الفاكس : 677 871 (216.1)

توطئة

" من اعتنى بالتاريخ ضمّ إلى عمره أعمارا "

حسن حسني عبد الوهاب

كنت قد أصدرت من قبل كتابا تحت عنوان "دليل منهجي في التاريخ" ركّزت فيه على الجانب المنهجي دون اغفال الجانب النظري عن مفهوم علم التاريخ وتطوّر العلوم التاريخية. وفي هذا التأليف ارتأيت التعمق في المسائل النظريّة واثرائها والتوسع فيها بقدر يمكّن القارئ من الإلمام بكل أوجه المسألة خاصة وأن نسق تطور علم التاريخ والكتابة التاريخية سريع للغاية. فالتاريخ اليوم ليس ما كان عليه بالأمس. لذلك في هذا التأليف- وعلى عكس سابقه – ركزت على الجانب المعرفي والتأليفي مواكبة لما يشهده العالم من أحداث بددت أمورا عدة كانت فيما مضى شبه يقينية وحتمية في تفسير الأحداث التاريخيّة. إلا أنيّ إلى جانب ذلك لم أهمل القضايا المنهجية التي كثيرا ما تعوق دارس التاريخ فأقحمتها في غضون التأليف حتى يدرك طالب اليوم تشعّب دراسة التاريخ وأنها في آن واحد منهج ومعرفة فعنّونت تأليفي هذا "**مدخل إلى دراسة التاريخ**".

هذا الكتاب أردناه بمثابة المقدمة لعلم التاريخ حاولنا فيه البحث عن أجوبة لتساؤلات أساسية: ما هو مفهوم التاريخ؟ ماهي الحقيقة التاريخيّة؟ ما هي حدود هاتة الحقيقة؟ كيف يمكن بلوغها؟ ما هي القضايا التي تشغل بال المؤرخين اليوم؟ ما علاقة التاريخ بالعلوم الأخرى؟ كيف كتب التاريخ عبر العصور وعند مختلف الشعوب؟...

لا أهدف في هذا التأليف عن علم التاريخ إثارة الجدل من جديد حول "فلسفة التاريخ" بالمنظور الهيقلي للمصطلح، بل أردناه مدخلا للعلوم التاريخيّة يجد فيه طالب قسم التاريخ زادا معرفيا يعينه على تخطى صعوبات الشعبة ويخفف من حيرته إزاء "حرفة المؤرخ" التي قد تفضي إليها دراسة بعضهم للعلوم التاريخية ففى العشرينيّة الاخيرة لم تنفك وظيفة المؤرخ تتطوّر وهو ما انجر عنه اعادة النظر في تعريف المعرفة التاريخية وفي طرق مقاربتها. فالبحث التاريخي اليوم- على غرار ما في المواد الأخرى- يستند الى قواعد ومنهجية علمية يكتسبها المؤرخ المحترف بعد سنوات من التخصص. وفي المقابل تعددت مظاهر التجديد مع "التاريخ الجديد" و"التاريخ الاجتماعي الجديد" و"التاريخ من الأسفل" و"التاريخ الكمّي"...

فهذا الكتاب **"مدخل إلى دراسة التاريخ"** وضعته بالأساس لطلبة شعبتي التاريخ والجغرافيا. فالحاجة ملحّة لديهم لتأليف شامل من هذا القبيل ينير سبيلهم في دراساتهم للعلوم التاريخيّة، هذا بالإضافة إلى دوافع أخرى حثّتنا على إنجازه نذكر منها خاصة :

- ضرورة مواكبة الطالب التونسي تطوّر العلوم التاريخيّة وطرق مقارباتها ومناهج تحليل الوثائق ودراستها.

- إكساب الطالب طرق العمل المنظّم ليتخطى صعوبات شعبة التاريخ ويكون واعيًا بأهميّة "حرفة المؤرّخ" وحساسياتها وبتشعّب قضايا التاريخ وتنوّع مجالات بحوثه من حيث الزمن (قديم-وسيط-حديث-معاصر) والمكان (العالم بأكمله) والمحتوى (التاريخ الوقائعيّ، الاقتصاديّ، الاجتماعيّ، الثقافيّ، السياسي، العسكري، الفكري ...)

- ضرورة إلمام طالب شعبة التاريخ بقضايا العالم المعاصر وفهم الأحداث التي يشهدها في وقت تقاربت فيه أرجاء الكون بواسطة وسائل النقل والاتصالات المتطوّرة باطراد. فلم يعد بإمكان الطالب التونسيّ أو العربيّ العيش منعزلا في فضائه الجغرافيّ الضيّق ومكتفيًا بتاريخه القوميّ

والمحليّ. لقد أصبح التفتح على الغير أمرا ملحّا أكثر من ذي قبل ليفهم الطالب ما يجري من حوله في عالم اليوم. وتساهم دراسة التاريخ بقسط كبير في هذا الفهم. فما يحدث اليوم من حرب أهليّة بيوغسلافيا سابقا لا يمكن فهمه إلا بالرجوع إلى الجذور التاريخيّة أي التاريخ الديني للمنطقة انطلاقا من أحداث سنة 1054م وانفصال كنيسة الشرق المسيحي مرورا بأسلمة المنطقة مع الاحتلال العثماني إلى قيام النظام الشيوعي وترسخه بها لأكثر من ثلاثين سنة ثم انهياره في بداية التسعينات.

– حاجة الطالب أن يلمّ بمجالات الدراسات التاريخيّة المتجدّدة باطراد والمتطوّرة باستمرار. فما كان منذ ربع قرن مضى في مرحلة التكوّن والنشأة أصبح من اهتمامات المؤرّخ اليومية (تاريخ العقليّات، الأنتروبولوجيا التاريخيّة، الديمغرافيا التاريخيّة، استعمال الإعلاميّة ..)

على أنّ هواجس عديدة وجهت عملي هذا منها: تحسيس طالب شعبة التاريخ بشساعة البحوث والدراسات التاريخيّة التي تشمل العالم بأسره بقسميه المتباينين جدّا (البلدان المتقدمة والعالم الثالث). فعلى طالب كلّ من القسمين معرفة تاريخ الآخر وعدم الانغلاق داخل بوتقة التاريخ القومي لفهم ما يحدث من حوله في أرجاء الكون، فما يجدّ في منطقة الشرق الأوسط اليوم يهمّ على حدّ السواء سكان الجهة وبقية النواحي الأخرى من العالم، وما تشهده المنطقة من أحداث ينعكس على اقتصاديات بلدان عديدة بعيدة جدّا عن ذلك المجال الجغرافي (على سبيل المثال انعكاسات حرب الخليج).

ينطلق هذا الكتاب من محاولة تعريف التاريخ لغة واصطلاحا بالاعتماد على عناصره الثلاثة وهي الزمن والمجال والإنسان وتفاعلهم المستمر وتطورهم الدائم.

وعلى غرار تعدد التعريفات تعددت أيضا فلسفات التاريخ وهو محور الاهتمام بالفصل الثاني من هذا التأليف.

إلا أنّ التاريخ في حاجة إلى الوثائق لكي يكتب كأقرب ما يكون للواقع وهو محتوى الفصل الثالث من هذا التأليف.

لم يكتب التاريخ بنمط واحد عبر العصور وعند مختلف الشـــعوب. فقد اختلفت المقاربات وتعددت المدارس التاريخية منذ القرن التاســـع عشـــر وهو ما تعرضنا له في الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب.

لم يشذ التاريخ عن التوجه العام لتطّور العلوم في السنوات الأخـــيرة والمتسم أساسا بتداخل المواد والاختصاصات فربط التـــاريخ مـــع مختلــف المواد علاقات وغنم من تطّورها، وهو ما جاء بالفصل السادس مـــن هــذا الكتاب.

ويختم الفصل السابع هذا التأليف بمحاولة تقيـــم وضعيـــة التـــاريخ والكتابة التاريخية اليوم انطلاقامما يشغل بال المؤرخين ومواقفهم المتباينـــة من قضايا التاريخ اليوم.

وبما أنّ الكتابة التاريخية هي بالأساس ممارسة صناعيـــة تكتســـب تدريجيا فكان لزاما على طالب شعبة التاريخ اكتساب طرق العمل المنظّـــم والمنهج القويم تدريجيّا طيلة سنوات الدراسة الجامعيّة. فطالب اليـــوم هـــو مؤرّخ الغد. إلا أنّ البون شاسع بين مرحلتي الدراسة والاحتراف في التاريخ وخلال هذا الفاصل الزمني الطويل يتلقى الطالب زادا معرفيّا ويتدرّب علـــى التعامل مع أصناف شتى من الوثائق ويكتشف أسس العمل المنظم وفوائـــده فليس كلّ من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا، فلا بدّ أن تتوفّر فـــي المؤرخ الصفات الضرورية من الجد والصبر والحـــسّ النقـدي المرهـــف والتواضع العلمي....

نرجو أن يساهم تأليفنا هذا "**مدخل إلى دراسة التاريخ**" فـــي بلـــوغ الأهداف المنشودة من ناحية ونماء المكتبة الجامعيّة التونسيّة والعربية مـــن ناحية أخرى.

I. مــا التــــاريــخ ؟

"هو فنّ يبحث عن وقائع الزمان... وموضوعـه الانسان والزمان ومسائله أحواله"

(السخاوي)

تعريف أم تعاريف التاريخ؟

ليس من اليسير تعريف التاريخ لغة واصطلاحا. فيقال من حيث اللغة تاريخ كلّ شيء أي "غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة" (الصولي، أدب الكتّاب، القاهرة 1341هـ، ص 178). وقيل إنّ معناه التأخير، وقيل إنّه اثبات الشيء ". وهو فنّ يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت وموضوعه الانسان والزمان، ومسائله أحواله المفصّلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة للانسان وفي الزمان." (السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التاريخ، دمشق 1349 هـ، ص 7). وفي اللغة العربية التاريخ والتأريخ والتوريخ يعني الاعلام بالوقت.

ولفظ تأريخ مصدر من أرّخ يعني من حيث الاصطلاح الزمن والحقبة. وقد كثرت التأويل في ذلك: فزعم بعضهم أنّ اللفظ مشتق من اللغة العبريّة بمعنى تحديد بدء الشهر القمري، وزعم آخرون أنّه تعريب للفظ فارسي معناه حساب الشهور والأيام أو التوقيت القمري.

ثمّ تطور مدلول الكلمة بعد ذلك ليصبح بمعنى الكتب التاريخيّة التي عنيت في أول الأمر بتراجم الملوك والعظماء و"ذكر وقائع الزمان" على حدّ قول الكافيجي (تـ. 879 هـ / 1474 م) في "المختصر في علم التاريخ"،

فكانت بذلك كتب السيرة النبويّة والمغازي والأنساب عند العرب من كتب التاريخ. ثمّ شملت هذه كتب الحوليات مثل "تاريخ" الطبري وغيره...

هذا وإنّ لفظ تأريخ عند العرب يختلف عن اللفظ الإغريقي Historia الذي يعني في أصله تقصي الخبر. ومهما اختلفت تعاريف التاريخ بين معرفة أحداث الماضي وفهمها خاصّة وبكونه الذاكرة الجماعيّة، فإنّ وجود التاريخ منذ أقدم العصور راجع بالأساس لارتباطه العضويّ بالإنسان الذي يمثّل العنصر الأوّل في تعريف التاريخ. فلولا وجود الإنسان لما وجد التاريخ. فأغلب المؤرخين يعتبرون التاريخ بحث واستقصاء حوادث الماضي أي كلّ ما يتعلّق بالانسان منذ بدأ يترك آثاره على الأرض. المؤرخ يدرس آثار الماضي ومخلفات الانسان حتى يفهم حاضره ويحسن التصرف في المستقبل. فالتاريخ بشري بالتعريف أي أنّ الانسان هو المحور الأساسي الذي تدور حوله رحى الأحداث، فالتاريخ لم يرتق الى مستوى التاريخ الا عند ما أصبح بشريا وتجاوز تاريخ الأسطورة.

ثمّ إنّ تعريف التاريخ مقترن أيضا بعنصر ثان هو الزمن، فكلّ حدث تاريخي يتنزل في اطار زمني معيّن وبالتالي فالتاريخ هو تلك العلاقة الجدليّة بين الإنسان والزمن، فلذلك لا غنى للمؤرخ عن معرفة الإطار الزمنيّ أو "الكرونولوجيّ" (chronologique) للحدث والمتكوّن من مجموعة أحداث مترابطة فيما بينها في الزمن التاريخيّ ومتّصلة بصفة مباشرة أو غير مباشرة بالحدث المدروس. ويعد الوعي بدور الزمن – بوصفه عاملا للتقدم والتطّور ومظهرا للصيرورة البشرية وبالتالي الوعي بتاريخيّة المعرفة البشرية – من أعظم الاكتشافات التي حققها فلاسفة القرن الثامن عشر. قام المؤرخ الألماني كريستوف كيلر (Ch. Keller) لأول مرة بتقسيم ثلاثي للتاريخ: حقبة قديمة أفرزت العبقرية اليونانية وحقبة وسطى أو وسيطة تميّزت بالجمود والانحطاط الفكري والحضاري وحقبة حديثة ميّزتها

النهضة. وقد كرّس القرن التاسع عشر فكرة الوعـــي بتاريخيّــة المعرفــة البشرية فشدّدت فلسفات التاريخ فيه على فكرتي المعقوليّة والغائيّة وخاصــة مع هيقل في كتابه "العقل في التاريخ". فغائية التاريخ هي دراسته من خــلال الفكر باعتبار هذا الأخير يميّز الانسان عن سائر المخلوقــات وباعتبــار أنّ العقل يسيّطر على العالم وأنّ تاريخ العالم يتّمثل أمامنا بوصفه مسارا عقليّـا. يقول في ذلك الفيلسوف الألماني هيقل معرّفا العقل على أنّه " مـــن ناحيــة جوهر الكون... ومن ناحية أخرى الطاقة اللامتناهية للكون...". فـــالتصور الهيقلي للزمان مستقى في الواقع من فلسفة أرسطو، فقد أعلن هيقل نفســه أن أبعاد الزمان ثلاثة هي : الحاضر والمستقبل والماضي، وأنها تشــكّل فيمــا بينها الصيرورة بوصفها اختلافا وتباينا للوجود في انتقاله الى العدم أو فـــي انتقال هذا الأخير الى الوجود.

هذا المفهوم الذي يدرك الزمان انطلاقا من الحاضر يعطـــي بعــدا واقعيّا للحاضر وآخر عاطفيّا للماضي والمستقبل ما داما يجدان مكانتهما فــي الذاكرة والأمل. وهو ما انتبه اليه هيدغر (Heidegger) (1889–1976) في الوجود والزمان حينما أوضح أنّ " الزمانيّة شرط التاريخيّة بوصفها نوعـــا من الوجود الزماني للراهنيّة". فالزمان لم يعد وعاء مطلقا ضمنــــه تجــري الأحداث وتقع التغيرات، بل أضحى تابعا للتغيرات ذاتها ويتنـــوع بتنوعـــها ويتخصص بتخصصها، فهو علائقي وليس انسيابا أو صيرورة. ويعني هــذا أنّ ثمة أزمانا بالكثرة ولا يوجد زمان واحد.

دأب المؤرخون على تقسيم الزمن التاريخي إلى حقـــب. ويختلــف التحقيب من بلد إلى آخر، فالبنسبة للبلاد التونسية فهو كما يلي :

* عصر ما قبل التاريخ : قد لوحظت آثار الحياة البشـــرية ببــلاد المغرب وخاصة القسم الشرقي منه منذ حوالي نصف مليون سنة أو أكـــثر. وتضم هذه الحقبة العصر الحجري القديم والمتوسط والحديث.

* العصر القديم : من قدوم الفنقيين حوالي 1100 ق.م إلى قدوم العرب المسلمين الفاتحين في النصف الثاني من القرن السابع للميلاد. يشمل هذا العصر العهد اليوني (1100 ق.م – 146 ق.م) والعهد الروماني (146 ق.م– 429 م) والعهد الوندالي (429 – 533 م) وأخيرا العهد البيزنطي (533 م– منتصف القرن السابع).

* العصر الوسيط: من منتصف القرن السابع إلى بداية الربع الأخير من القرن السادس عشر ميلادي.

يضم عهودا عديدة هي :

- الفتح الإسلامي وعهد الولاة (648–800 م)
- العهد الأغلبي (800–909 م)
- العهد الفاطمي (909–973 م)
- العهد الزيري (973 – حوالي 1230 م)
- العهد الحفصي (1230–1574 م)

* العصر الحديث : من حلول العثمانيين إلى نهاية حكم حمودة باشا الحسيني (من 1574 إلى 1815 حسب بعض المؤرخين في حين يجعل جلّهم نهاية الحقبة عند انتصاب الحماية الفرنسية (أي من 1574 إلى 1881)

* الفترة المعاصرة : من وفاة حمودة باشا (1815) أو انتصاب الحماية (1881) إلى يومنا الحاضر، وتضم أساسا فترتي الحماية وما بعد الاستقلال وبناء الدولة المستقلة.

لا يكتمل مفهوم التاريخ إلا بإضافة عنصر ثالث هو المجال، ذلك لأنّ الإنسان الذي هو العنصر الرئيسيّ في التاريخ يعيش في مجال تختلف مميّزاته وخصوصيّاته من مكان إلى آخر. فكلّ حدث تاريخي يتنزل في

اطار زمني وكذلك في اطار مكاني. فالمجال والزمن شـيئان ملتزمـان ولا معنى لواحد منهما دون الآخر، وهو ما يفسّر الى حدّ ما تلك العلاقة المتينـة بين التاريخ والجغرافيا وتأثير العوامل الجغرافية على الأحـداث التاريخيـة (على سبيل المثال أهمية ممر جبل البرينر Brenner في حركة الهجرة بيـن ايطاليا والعالم الجرماني منذ أقدم العصور).

ومن البديهي أنّ موقع البلاد التونسية قد لعب دوراها ما في تعـاقب الحضارات على أرضها فوجودها في أقصى الجـزء الشـرقي مـن بـلاد المغرب وتميزها عن بقية أقطار المنطقة من حيـث المعطيـات الطبيعيـة والبشرية جعل منها ممرا حضاريا، فحطت بها شعوب عـدة (الفنيقيـون – الرومان – الوندال – العرب –الأتراك – الأوربيـون.....). كذلـك فـان موقعها جعل منها محور النزاعات في حوض البحر الأبيض المتوسط عـبر مختلف الحقب (الصراع الروماني– القرطـاجي فـي القديـم ، الصـراع العربي– النور ماندي في العصر الوسيط، الصراع الاسباني – العثماني فـي العهد الحديث، الصراع الإيطالي – الفرنسي في الفترة المعاصرة.....).

فالتاريخ إذن هو تفاعل العناصر الثلاثة: الإنسان والزمن والمجـال، وبالتالي فالتاريخ هو تلك العلاقة الجدليّة فيما بينها. وعلاقة الإنسان بمجالـه نوعان: إمّا علاقة استسلام وخضوع لقوى ذلك المجال عندما يعجز الإنسـان عن تغيير مجاله وجعله طوعا لرغباته وطموحاته، أو علاقة تحـدّ إذا مـا تمكّن الفرد أو المجموعة من السيطرة والتغلّب على المجال ليصبح آنـذاك المجال أو المشهد بدوره وثيقة يمكنُ للمؤرّخ استغلالها وقراءتها والتعـرّف على نوعيّة العلاقة التي كانت قائمة بين الإنسان وذلك المجال في عصر من العصور.

من الخبر إلى التاريخ الجديد

لقد اعتبر القدامى التاريخ مجرد سرد للأحداث الجليلة التي تستحق الذكر أو التدوين على سجلات المؤرخين سواء أكانت تلك الأحداث من صنع العظماء أو الآلهة أو الطبيعة. فكان التاريخ عندهم تاريخ الملوك والآلهة والكوارث وكلّ ما هو غريب وعجيب، وبالتالي كان خاليّا من الإنسان العادي ومن مظاهر الحياة اليوميّة. ولا تزال هذه النزعة في كتابة التاريخ عند العديد من الأمم إلى يومنا الحاضر.

لقد نظر القدامى إلى التاريخ على أنّه فنّ يهتمّ قبل كلّ شيء بالإنسان لا كفرد بل ضمن المجموعة، فكانت كتاباتهم عن المجتمعات والأمم والحضارات وأحيانا عن البشرية أي عن كلّ ما هو جماعي في الزمان.

ولكن يصعب على المؤرخ أو عالم الاجتماع أيضا التفرقة بين ما هو جماعي وما هو فردي، ذلك أنّ الأحداث تتداخل والحدّ الفاصل بينهما غير واضح دائما. فالمؤرخ الطامح إلى "إعادة بناء الماضي" كما يقول ميشلي (Michelet) في تعريفه للتاريخ يحتاج في آن واحد إلى وثائق جماعية وأخرى فردية كتلك التراجم التي تملأ كتب الطبقات مثلا. كما يحتاج أيضا إلى ما هو مكتوب، وإلى ما هو غير مكتوب، وإلى ما هو بشري وما هو طبيعي كمعرفة تواريخ الكوارث الطبيعية من فيضانات وزلازل وأوبئة ومجاعات...

كلّ ذلك يهمّ المؤرخ على أساس أنّه يتصل بالإنسان الذي هو العنصر الأوّل في التاريخ وما يتعرّض له من حوادث في فترة زمنية معينة وفي مجال جغرافي محدّد. وبالتالي لسائل أن يتساءل عن ماذا يكتب المؤرخ؟ هل يكتب تاريخ الجماعات أو الأفراد أو البشرية أو الطبيعة؟ هل يكتب عن الماضي أو الحاضر؟

يكتب المؤرخ في الواقع عن كلّ ذلك. فكلّ ما هو إنساني غير غريب عن المؤرخ، على غرار كلّ ماهو حيواني ليس بغريب عن البيولوجي. ولكن غاية المؤرخ ليست تقييم الأحداث أو الحكم عليها بإصدار أحكام تقييمية. فالتاريخ ليس محكمة والمؤرخ يكتب عما وقع وليس عما كان يجب أن يكون على حدّ قول بول فاين (P. Veyne) في كتابه "كيف نكتب التاريخ":

"*L'histoire s'occupe de ce qui a été, et non de ce qui aurait dû être...*" (P. Veyne, *Comment on écrit l'histoire*, éd. du Seuil, Paris, 1971, p. 220).

ولكن هل بالإمكان كتابة التاريخ دون إصدار أحكام تقييمية؟ هل بإمكان المؤرّخ التجرد كليّا؟ المفروض أن لا يحكم المؤرّخ على الأحداث، بل يعمل على فهمها وتفسيرها، فليس له أن يمدح هذا الحدث أو هذا الشخص أو يذمّ ذاك، على أنّ ذلك ليس من السهل، فالتجرد المطلق يبدو صعبا على المؤرخ الذي هو انسان قبل كلّ شيء، لذلك فانّ الموضوعية المطلقة تكاد تكون مستحيلة. فكلّما كان المؤرّخ متفتحا على التيارات المختلفة كان أقرب إلى الموضوعيّة.

يطمح إذن المؤرخ أن يكتب تاريخا موضوعيا ومطابقا للواقع، وهو أمر يكاد يكون مستحيلا في كلّ العلوم الإنسانية وليس في التاريخ فقط وبالأخصّ في هذا العلم بالذات. فكلّ كتابة تاريخيّة إنّما هي تزوير بوجه من الوجوه وبدرجة من الدرجات، ذلك لأن التاريخ الذي نكتبه ليس أبدا عين الحقيقة، ويرجع ذلك إلى عاملين اثنين على الأقل:

– أولهما أنّ الوثائق التي نعتمدها لكتابة التاريخ لا تمثل أبدا الواقع بكامل أوجهه، هذا بالإضافة إلى التلف الذي قد يصيب البعض منها أو فقدان العديد مما كتب في العصور الماضية.

– ثانيا بسبب عامل التزوير الذي كثيرا ما تتعرّض لــــه الكتابــات التاريخية منذ أقدم الأزمنة وعند مختلف الشعوب. ولئن كـــان فـــي بعــض الأحيان ونادرا التزوير عن غير قصد، فإنّ التزوير المقصود هو الأخطر إذ يقصد منه التدليس أو غضّ النظر عن بعض الحقائق أو الإغفال عن ذكرهـا خدمة لمصالح معيّنة سياسية كانت أو غيرها أو انحيازا مذهبيّـــا لارضــاء ميولات شخصيّة عقائديّة كانت أو مذهبيّة. وفي هذه الحالة كثيرا ما يكـــون التزوير ألا شعوريّا، وتكون الكتابة بالضرورة منحازة لشقّ على شقّ آخــر، والمؤرخ يتحيّز عند ايراد الأخبار ولا يفصل بين العقيدة والحقيقة فيصبــــح التاريخ أنذاك مسكونا برؤية المؤرخ وبما تمليه عليه نزعاته وأهواؤه.

ومهما يكن من أمر فالتاريخ ليس علما للواقع، بل معرفة بخبر عــن الواقع، أي أنّ الكتابة التاريخية أخبار عن أحداث الماضي و"ذكــر الأخبــار الخاصة بعصر أو جيل" على حدّ قول ابن خلدون (ابن خلـــدون، المقدمــة، ص 50) و"ذكر أحداث مشهورة في أزمنة خالية..."، حتى أنّ بعضهم عرّف التاريخ بعلم الخبر (ابن حزم، التقريب لحدّ المنطـــق...، تحقيــق إحســان عباس، بيروت 1959، ص 202) أو خبر حوادث المـــاضي التـــي يجــب الاعتبار بها في الحاضر والمستقبل وهو حقل تجارب فعنوّن ابـــن خلــدون تاريخه "كتاب العبر..." ومسكويه "تجارب الأمم". فكلاهما اعتـــبر معـــابر التاريخ مليئة بالعبر والتجارب.

شهد القرن XIX جدلا حول ماهية التاريخ ووصفه بصفة العلـــم أو نفيها عنه. فقال بعض العلماء انّ التاريخ لا يمكن أن يكون علما لأنه يعجــز أن يخضع الأحداث التاريخية الى الاختبار والتجربـــة، وبالتـــالي لا يمكــن استخلاص قوانين ثابتة للتاريخ على نحو ما هو موجـــود بالنســبة للعلــوم التجريبيّة. ورأى بعض رجال الأدب في التاريخ فنّا مـــن الفنـــون. ووقــف آخرون موقفا وسطا على أساس أنّ انعدام القوانين الثابتة لا يجرّد التـــاريخ

من صفة العلم مع الاقرار "أنّ التاريخ ليس علم تجربة واختبار ولكنّه علـــم نقد وتحقيق" (هرنشو، علم التاريخ، ترجمة عبد الحميد العبادي، ص 8).

مجـــــال المؤرخ

لقد تخطّت الدراسات الحديثة المفهوم التقليديّ للتـــاريخ، فلـــم يعـــد التاريخ اليوم ما كان عليه بالأمس، أي لم يعد ذلك العلم الذي يهتمّ بالمـــاضي فقط، بل أصبح علما يهتمّ بالإنسان وأحواله المتبدّلة باســـتمرار علـــى مـــرّ العصور .فهو علم لا نهاية له وهو مستمر باستمرار ووجـــود الإنســـان أي الحياة أو التفاعل بين الإنسان وبيئته. فهناك دائما وأبدا حركات ذهاب وإياب داخل التاريخ، بين الخاص والعام، بين الماضي والحاضر "(محمد الطـــالبى، عيال اللّه ص 60). فالمطلوب من التاريخ أن يساعدنا علـــى فـــهم آليـــات التطوّر والتبدّل المستمر للإنسان، أي فهم الحاضر الذي هو في الواقع امتداد للماضي التاريخيّ. لذلك يولي الاتجاه الحديث للدراسات التاريخيّـــة عنايـــة خاصة بالتاريخ الآني أو ما اصطلح على تسميته بتـــاريخ زمـــن الحـــاضر (Histoire du temps présent) الذي له مميّزاته وطرق مقرباته (انظر عن ذلك على سبيل المثال :

F. Bédarida, " Méthodologie et pratique de l'histoire du temps présent ", *Correspondances, N° 43, Oct. 1996, pp. 3-8.*

- *Ecrire l'histoire du temps présent, hommage à François Bédarida*, CNRS éditions, Paris 1993.

لقد حلّ مصطلح تاريخ زمن الحاضر في أواخر الســـبعينات محـــل مصطلح التاريخ الآني ومن قبله التاريخ المعاصر الذي يبـــدأ بفرنســـا مـــع الثورة الفرنسية أي مع حدث جدّ منذ أكثر من قرنيين. وبالتالي من الصعـــب

إدراج حدث مثل حرب الخليج ضمن نفس الحقبة أي الفترة المعاصرة التي تدرج فيها مسائل أخرى حدثت في القرنين XIX وXX.

لقد اتّسع اليوم مجال الدراسات التاريخية إلى حدّ أنّه أصبح بلا حدود، فتنوّعت اهتمامات المؤرخ وشكلت نمطا جديدا من الكتابة التاريخيّة تعرف "بالتاريخ الجديد" (La Nouvelle Histoire). فبعد أن كانت عناية المؤرخ منصبة على التاريخ الوقائعي والسياسي تحول اهتمامه إلى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لفترة معينة، ثم أدرك أنّ العامل الاقتصادي لا يمكنه وحده من تفسير الحدث التاريخي فاسترجع آنذاك التاريخ السياسي مكانته من جديد لكن في شكل ومفهوم أوسع وبأوجه متعددة بإقحام عناصر جديدة فيه كالفئات الضعيفة والمهمّشة. كما وجب إعادة النظر في تحقيب التواريخ القومية والمحلية على ضوء قراءة أخرى للوثائق وللأحداث التاريخيّة.

يتمحور التجديد حول ثلاثة مظاهر رئيسية: في مستوى القضايا المطروحة والمقاربات والابستمولوجيا. فقد وعي المؤرخون بنسبيّة علم التاريخ المتأرجح بين التاريخ المعاش والتاريخ المبني مما دفعهم إلى التساؤل من جديد عن أسسه الابستمولوجيّة. وتأثّر "التاريخ الجديد" بمناهج بعض العلوم الإنسانية المعتمدة على الكمّ كالديمغرافيا والاقتصاد رافضا بذلك أكثر من ذي قبل فلسفة التاريخ وغير مكتف بالتاريخ الوضعي. كما على التاريخ مواجهة دوس بعض العلوم على حدود مجاله كالإنتوغرافيا الرافضة لهيمنة المكتوب والمهتمة بالحياة اليومية والفئات الضعيفة.

يمثّل تاريخ العقليات أو الذهنيات أحد أهمّ أوجه التجديد في الدراسات التاريخية منذ الستينات رغم ظهور بوادره في منتصف العشرينات مع دراسة مارك بلوك (M. Bloch) عن خوارق ملوك فرنسا وانقلترا والاعتقاد الراسخ لدى الناس بقدرة الملك على شفاء المرضى

بمجرد لمسهم (يبقى المرجع الأساسي عن ذلك تأليف مارك بلوك .("*Les Rois thaumaturges*").

تمحورت الدراسات الجديدة عن الموت في العصور الحديثة والمعتقدات والأساطير والسلوكات الجنسية ومراسم الزواج عند بعض الشعوب... تعتمد هذه الدراسات على مصادر متنوعة (شفوية – مكتوبة – مصورّة ....) بما في ذلك استغلال الأحلام على أساس " أن أحلام الناس تمثل جزءا من تاريخهم وتفسرّ الى حدّ ما العديد من أفعالهم "(J. Delumeau). وهو ما أسماه بعضهم "التاريخ بالحلم" (ع. العروي). فيصبح أنذاك المخيال الاجتماعي بدوره وثيقة تاريخية. واتبع تاريخ العقليات طرقا ومقاربات وتقنيات عدة سايرت إلى حدّ كبير طرق علم النفس الاجتماعي أو الطبي ومناهج البحث لكلّ من الأنتروبولوجيا والأتنوغرافيا.

وباتساع مجاله راجع التاريخ موقفه من بعض أنساق التفسير التاريخي كالنسق الماركسي تحت تأثير بعض العلوم الإنسانية، فاتجهت اهتماماته إلى العقليات ومؤخرا إلى التاريخ الآني.

وإضافة إلى ذلك تجدد التاريخ بإثراءات بعض فروعه كعلم الآثار الجديد والتاريخ الاقتصادي السلسلي والديمغرافيا التاريخيّة وتاريخ الفن وتاريخ العلوم...

وتجدد التاريخ أيضا باكتساحه ميادين كانت خارجة عن مجاله التقليدي كالمناخ والأسطورة والأعياد والجسد والطبخ... تحت تأثير الأنتروبولوجيا البنيوية.

كما تجدد التاريخ بتضاعف عدد المؤرّخين المحترفين في كلّ قطر من أقطار العالم حتّى تحدث بعضهم عن "دولية البحث التاريخي" بواسطة توزيع كبار مجلات التاريخ عبر أنحاء العالم :

Revue d'histoire moderne et contemporaine - Journal of Moderne History - Annales - Past and Present...

المؤرخ والحدث التاريخي

إنّ ما يشهده العالم اليوم بنسق سريع جدّا من أحداث جسام (سقوط حائط برلين – انهيار المعسكر الشرقي والنظام الشيوعي– أزمات العالم الرأسمالي المختلفة....) قد بدّد الكثير مما كان يعتقده المؤرخون كحقائق يقينية. لذا وجب على مؤرخ اليوم توخي مقاربة جديدة " توفق بين حصافة المؤرخ ودقة ملاحظته ويقظة الأنتربولوجي وبعد نظر الفيلسوف... على أساس أنّ التاريخ تراكمي، وإن تكرّر ففي الظاهر فقط"... .(H. Djait, *La Presse*, 25/5/98)

إن كان التاريخ هو الذاكرة الجماعية لأمة أو قبيلة أو فئة حرفية، فانّ كلّ مخلفاتها بدون استثناء تشكّل مقومات ذاكرتها، فلا فرق آنذاك بين العمارة والأثر المكتوب أو غير المكتوب والأحداث الهامة والأفكار التي تعبرّ كلّها عن ماضي المجموعة. فالذاكرة هي كلّ ذلك وهي مرتبطة بكل المقومات المحسوسة وغير المحسوسة بما في ذلك مخيال تلك المجموعة البشرية والمكونّة "لمواقع الذاكرة" المشتملة على كلّ مكونات التراث (الثقافي– البيئي– المعماري– الفني...) بما في ذلك حدود القطر وتاريخه ومعالمه وعادته وتقاليده ومشاهده الريفية والمدينية ونظمه السياسية.. وهي المكوّنة لأبعاد التراث التي ما انفكت تتسع لتشمل كل مخلفات الماضي القومي والعالمي أحيانا. (انظر التأليف الجماعي بإشراف المؤرخ الفرنسي بيارنورا (P.Nora) تحت عنوان *"Les lieux de mémoire"* 1984–1993.

انطلاقا من هاته المخلفات يحاول المؤرخ اعادة بناء الأحداث التاريخية. ولكن ما هوالحدث التاريخي؟ هل كلّ الأحداث تدرج ضمن الأحداث التاريخية وتدخل في اهتمامات المؤرخ؟

يمكن القول أنّ الحدث وجد في المدرسة الوضعية خير مدافع عنـــه اذ اعتبر مؤسس المدرسة رنك (Ranke) أنّ وظيفة المــؤرخ هــي تحديـد الأحداث وتبويبها، وبالتالي فانّ التاريخ مجموعة أحداث توفرهـــا الوثـــائق خاصة المكتوبة منها. ففي نظر مؤرخي تلك المدرسة " الأحـــداث مقدسـة والرأي حرّ" على حدّ تعبير الصحافي البريطاني سكوت (Scott) الا أنّ هذه النظرة تضع كلّ الأحداث على قدم المساواة في حين أنها ليست كلّها أحداثـا تاريخيّة وموقف المؤرخ منها يختلف من حدث الى آخر.

ماهو الحدث التاريخي؟ هــل كــلّ الأحــداث تســتحق أن تنعـت بالتاريخية؟ ما علاقة المؤرخ بذلك؟ أي معيار يمكن يعتمد المؤرخ للتميـــيز بين ما هو تاريخي من الأحداث وما هو حدث عادي في المـــاضي؟ هنـــاك أحداث يتفق كلّ المؤرخين بكونها تاريخية: أذكر على سبيل المثال معركـــة صفّين بين أنصار علي وأنصارمعاوية في أواخر سنة 36 هـ بمكان يعرف بصفّين ما بين العراق والشام. فكلّ المؤرخين يتفقون حول أهميـــة الحــدث وتاريخه ومكانه والأطراف المشاركة فيه... وبالتالي اعتبروه حدثا تاريخيـا هاما منذ الاخباريين الأوائل الذين نقلوا الأحـــداث الــى مؤرخــي الفــترة المعاصرة. فمازال ذلك الحدث بعد خمسة عشر قرنا من وقوعه يســـتقطب اهتمام بعض المؤرخين المعاصرين الذين يحاولون فهم الحدث ويعتبرونـــه دائما حيّا في الحاضر وذلك انطلاقا من مبدا أنّ التأويل حـــرّ فــي عمليـة الكتابة التاريخيّة خصوصا اذا ما عالجنا الأحداث مـــن زاويـــة مصادرهـــا وناقليها الينا والى الأجيال السابقة وحاولنا فهمها مستعينين في ذلك بطـــرق ومقاربات "العلوم الرديفة" للتاريخ وآخذين بعين الاعتبـــار العقليـــة الســائدة أنذاك في المجتمع العربي الاسلامي للقرن الأول الهجري وأخيرا محـــاولين فهم الماضي على ضوء الحاضر على أساس أنّ المـــؤرخ وليــد عصـــره وزمانه وأنّه يسعى لمعرفة الماضي وفهمه لفهم الحاضر.

فانّ كان التاريخ هو ذلك "البناء" للماضي من طرف المؤرخ بحسب تأويله للأحداث فماهي اذن الموضوعية التاريخيّة ؟ هل يفضل المؤرخ الحدث أم التأويل؟ هل يفضل العام أم الخاص؟ هل هو أسير الأحداث أم سيد التأويل؟.

الواقع أنّ المؤرخ بحكم كونه قبل كلّ شيء بشر يقيم بينه وبين الأحداث علاقة تبادل وتداخل بين الماضي (الأحداث) والحاضر (المؤرخ). فلا غنى للمؤرخ عن الأحداث التي بدون وجود المؤرخ تبقى بدورها مقبورة ولا معنى لها وبالتالي فانّ التاريخ هو تداخل مستمر بين المؤرخ والأحداث و"حوار أبدي بين الحاضر والماضي" على حدّ قول بعضهم:

"*L'histoire est un dialogue perpétuel entre le présent et le passé*" (E.H.Carr, *Qu'est ce que l'histoire*? éd. La Découverte, Paris 1988, p. 78).

فمن خلال هذا الحوار يصنّف المؤرخ الأحداث، فما يراه هامّا ويتماشى ومقاربته واغراضه يعتبره تاريخيّا. فالحدث التاريخي هو في واقع الأمر من صنع المؤرخ ويتحول الى مادة تاريخية عندما يضعه المؤرخ في تسلسل زمني معيّن بعد بحث ونظر وتحقيق.

وعلى غرار الأحداث تصنّف المعالم أيضا الى قسمين: معالم عادية وأخرى تاريخيّة على أساس أنّ هذه الأخيرة تمثل مواقع للذاكرة الجماعية (محلية – قومية– عالمية) أي من شأنها أن تعبّر عن التاريخ القومي أو المحلي أو الكوني في مستوى التراث المعماري والتي من الواجب صيانتها وحمايتها وجردها. هذا الحرص على المحافظة على الذاكرة القوميّة كان سببا في ظهور المتاحف وتطوّر العلم المتصّل بها (muséologie) واعلان منظمة اليونسكو عن "ميثاق حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي "

(1972) وضبط قائمة للمعالم والمواقع المصنّفة ضمن التراث العالمي والتي نعتّها بعضهم "بعجائب الدنيا الجديدة" .

غايات التاريخ وفوائده

انطلاقا من هذا المفهوم للتاريخ، فإنّ غايته الأساسيّة تكمن في فـــهم قيمة الأحداث وتفاعلها مع الفكر الإنسانيّ أكثر من معرفة الأحداث في حـــدّ ذاتها. ولا يحصل الفهم إلاّ إذا ما أخذنا بعين الاعتبار جملة العوامل المتدخّلة في صنع الحدث التاريخيّ (سياسيّة، اجتماعيّة، اقتصاديّة، ثقافيّـــة، داخليّـــة، خارجيّة ...)

لقد لعب العرب دورا هاما في بلورة مفهوم التاريخ وغاياته وفوائـده خاصّة ابن خلدون ونظريّته عن العلاقة الجدليّة بين الإنسان والتاريخ. فكـــلّ الذين سبقوه رأوا في التاريخ مجرد رواية لحوادث الماضي، في حين اكتسى التاريخ معه "صبغة علميّة" على حدّ قول ايف لاكوست (Y. Lacoste) فـــي دراسته عن ابن خلدون. برهن بذلك المؤرّخ وعالم الاجتماع ابن خلـدون أنّ علاقة الإنسان بتاريخه هي علاقة جدليّة، وأنّ التـــاريخ أداة لفـــهم تطـــوّر الإنسان وكشف عن "سرّ الاجتماع الإنسانيّ". يقول ابن خلـــدون فـــي هـــذا الصدد : "...أنّه خبر عن الاجتماع الإنسانيّ الّذي هو عمران العـــالم، ومـــا يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحّش والتأنس والعصبيّـــات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملـــك والدوّل ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصّنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحـــوال... " (ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1967، ص 57).

إنّ التاريخ في المفهوم الخلدوني ليس تسلسلا للأحداث في الزمـــن، بل هو حركة جدليّة للتطوّر الذي يحتل فيه الإنسان المركز ويمثل محرّكـــه الأوّل. فالإنسان هو القوة الدافعة للتاريخ بفضل أعماله ومســـاعيه وعلومـــه وصنائعه التي هي قوام "العمران البشريّ".

فالتغيّر المستمر "للعمران البشري" يمثل القانون الذي يسير بمقتضاه التطوّر الإنسانيّ على مرور الأزمنة والعصور. وبالتالي فالتاريخ في نظر ابن خلدون لا تكرار فيه ولا يعيد نفسه بل هو خلق متجدّد. وهنا تكمن عبقريته إذ خالف بذلك سابقيه الذين اعتقدوا كلّهم أنّ التاريخ يعيد نفسه، حتّى جاء ابن خلدون ليقول: "ومن الغلط الخفيّ في التاريخ الذهول عن تبدّل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدّل الأعصار ومرور الأيام ... وذلك أنّ أحوال العالم والأمم وعوا ئدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ، إنّما هو اختلاف على الأيّام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة اللّه التي قد خلت في عباده" (ابن خلدون، المقدمة، ص 46).

يكاد يجمع المؤرّخون القدامى بما في ذلك ابن خلدون على أنّ من فوائد التاريخ "الإقتداء بأحوال الماضين في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم..." (ابن خلدون، المقدمة، ص 12). وقد سبقه في ذلك المسعودي فقال : "ونحن وإن كان عصرنا متأخرا عن عصر من كان قبلنا من المؤلّفين وأيامنا بعيدة عن أيامهم فنرجو ألاّ نقصّر عنهم في تصنيف نقصده وغرض نؤمّه وإن كان لهم سبق الابتداء فلنا فضيلة الإقتداء... (المسعودي، التنبيه والإشراف، المكتبة العصريّة، بغداد 1938، ص 66).

والتاريخ أيضا حقل تجارب ومجال تأمل واعتبار. قال في ذلك حسن حسني عبد الوهاب : "من اعتنى بالتاريخ ضمّ إلى عمره أعمارا"، وأضاف إليه الأستاذ محمد الطالبي : "والى تجاربه تجارب... وأنّ التاريخ حركة دائمة نحو الأفضل وأنّ هناك دائما وأبدا حركات ذهاب وإياب داخل التاريخ بين العام والخاص، بين الماضي والحاضر...".

يساهم التاريخ في تغذيّة شعور الإنسان واللاشعوره، ذلك أنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي هو في حاجة إلى ذاكرة تخلّد أعماله وتعينه على بناء شخصيّته ووقايتها من الذوبان. وسواء أكانت هذه الذاكرة فرديّة أو جماعيّة،

فهي تميّز الإنسان عن بقيّة الكائنات الأخرى حتى قيل إنّه "حيوان اجتماعي" وكذلك أيضا "حيوان تاريخيّ"، أي كائن لا يستطيع العيش بدون تاريخ.

يساهم التاريخ أيضا في إثراء خيال القصّاصين والروائيين الذين ينطلقون أحيانا من حوادث تاريخيّة لكتابة قصصهم أو رواياتهم على غرار ما فعل الكاتب الفرنسيّ فلوبار (Flaubert) في قصته صلامبو (Salammbô) أو جرجي زيدان في رواياته التاريخيّة العديدة ...

ويعزى للتاريخ فوائد عديدة أخرى، منها أنّه "يحرر الإنسان من أعباء الماضي" ويكيّف سلوكه في الحاضر على ضوء الماضي وفي المستقبل على ضوء الحاضر وذلك على أساس أن حياة الإنسان تراكمات تجارب. يقول في ذلك مارو (Marrou) :

"*La connaissance historique libère l'homme du poids de son passé* (Marrou, *De la connaissance historique*, éd. du seuil, Paris 1975, p. 264).

ولعلّ من أحسن ما قيل عن فوائد التاريخ وغاياته بصفة مقتضبة وبليغة جدّا ما أجاب به المؤرّخ مارك بلوك (Marc Bloch) ابنه عن سؤاله: "لما يصلح التاريخ أبتاه ؟ ليجيبه: ... لنفهم".

"Papa, explique- moi donc à quoi sert l'histoire?"

"*Un mot, pour tout dire, domine et illumine nos études : comprendre* " (M. Bloch, *Métier d'historien*, éd. Colin, Paris 1967, p. 72)

فالتاريخ الذي هو أكثر العلوم الإنسانية اكتمالا هو في نفس الوقت أخطرها اذ أنّ هدفه الرئيسي هو فهم الانسان.

هذا ولن يؤدّي التاريخ وظائفه على أحسن وجه إلاّ إذا ما توفّرت للمؤرّخ وثائق بالقدر الكافي وسلمت كذلك من عمليّة التزوير المقصود أو غير المقصود.

المراجع :

- عبد الله العروي، *مفهوم التاريخ*، المركز الثقافي العربي، الــدار البيضاء 1992. (جزئين)

- عبد الحميد يونس - إبراهيم خورشيد - حســن عثمــان، *علــم التاريخ*، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1981.

- ج. هرنشو، *علم التاريخ*، ترجمــة عبــد الحميــد العبــادي، دار الحداثة، بيروت 1988.

- فرانز روزنتال، *علم التاريخ عند المسلمين*، ترجمة أحمد صــالح العلي، بغداد، 1963.

- شوقي الجمل، *علم التاريخ: نشأته، تطوّره* ... مكتبــة الأنجلــو المصريّة، القاهرة 1982.

- Bloch (M), *Apologie pour l'histoire ou métier d'historien*, Paris, A. Colin, 1979.

- Le Roy Ladurie (E), *Le territoire de l'historien*, Paris, Gallimard, 1973.

- Le Goff (J), Nora (P), *faire de l'histoire*, éd. Gallimard, Paris, 1974, 3 tomes.

- Le Goff (J), Chartier (R), Revel (J), *La Nouvelle Histoire,* Paris, CEPL, 1978.

- Chaunu (P), *Histoire science sociale,* Paris, SEDES, 1974.

- Carr (E.H), *qu'est ce que l'histoire*?, la Découverte, Paris 1988.

- Dosse (F), *l'histoire en miettes: des Annales à la Nouvelle histoire,* la Découverte, Paris 1987.

- Duby (G), *l'histoire continue*, Paris 1991

- Aron (R), *leçons sur l'histoire*, Paris 1989.

- Boutier (J) - Julia (D), Passé recomposé, champs et chantiers de l'histoire, *Autrement , N° 150- 151, 1995*

II. فلــــسفــــة التـــــاريـــخ

"فهو (التاريخ) لذلك أصيل في الحكمة عريق

وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق..."

(ابن خلدون)

فلسفة أم فلسفات التاريخ ؟

على غرار تعدّد تعاريف التاريخ تعدّدت أيضا المواقـــف الفلســفية منه. فلئن كان التاريخ هو ذلك العلم الذي يدرس التطوّر البشري في جميـــع النواحي، فانّ فلسفة التاريخ تبحث في العوامل الأساسية المؤثّرة فـــي ســـير الأحداث التاريخية وتدرس القوانين العامة المسيّطرة على نمـــو الجماعـــات الانسانية وتطوّرها على مرّ العصور. وعموما فان فلسفة التاريخ هي النظــر الى الوقائع التاريخيّة بنظرة فلسفية" ورؤية المفكر للتاريخ أو حكمه عليــــه". (الخضيري، *فلسفة التاريخ عند ابن خلدون*، ص 65).

هذا ويعتبر مصطلح "فلسفة التاريخ" مصطلحا حديثا ظهر في القـــرن الثامن عشر مع فيكو وفولتير وان كانت مباحث فلسفة التاريخ ترجـــع الـــى أقدم العصور في مؤلفات كلّ من القديس أو غسطين وابن خلدون وميكيــافلي وبوسوية وجون لوك... ثم بحث فيها كلّ مـــن تورغـــو وهـــردر وهيقـــل وماركس وشبنجلر وتوينبي وغيرهم... وجميع هؤلاء الفلاسفة يبحثون عـــن القوانين العامة لتطوّر الأمم، فمنهم من يرجع التطوّر التاريخي الى العـــامل

الديني، ومنهم من يرجعه الى العظماء، ومنهم من يرجعــه الــى العوامــل الاقتصادية.

ومهما اختلفت العوامل فانّ كلّ نظرية في التاريخ ترتبط بنظرية في الزمان، فلا تاريخ الا بالزمان. فالذين يرجعون التطوّر الى تأثير الدين قــد ربطوا الزمان بالخلق الأول وبمصير الانسان في الدنيا وبنهاية يوم الحسـاب حيث العقاب والثواب، وهو موقف المفكرين المسيحيين وفي مقدمتهم القديس أو غسطين (354-430م) الذي تصور التاريخ الانساني كلّه على أنّه فــترة من الزمان تتحقق فيها خطة الله في خلاص الانســان منــذ وقــع آدم فــي الخطيئة. فسمات هذه الخطة تعطي للتاريخ معنى الهيا عاليا، فصار تــاريخ الانسان في نظر اللاهوت المسيحي هو تاريخ الخلاص. وقد ســادت هــذه النظرة طيلة القرون الوسطى بأوربا في فترة هيمنت فيها الكنيسة على كــلّ المجالات بما في ذلك الكتابة التاريخية وتواصل تأثيرها حتى ما بعد ذلــك، فهذا عالم الاجتماع والفيلسوف الايطالي فيكو (Vico) (1668-1744) يعتقد أنّ المجتمعات الانسانية تمرّ بمراحل معيّنة من النمو والتطوّر والفناء وفــق العناية الإلهية التى تشمل الوجود برعايتها. وهو يميّز في تاريخ الانســانية ثلاث مراحل متتابعة هي: المرحلة اللاهوتية، ثمّ المرحلــة البطوليــة، ثــمّ المرحلة الانسانية، وكل مرحلة من هذه المراحل أعلى من ســابقتها. ففــي المرحلة الأولى التى يسميها فيكو عصر الآلهة تسود الخرافات والخوف مـن الظواهر الطبيعية التي تعدّ تجليا لارادة الآلهة، كما تســيطر فكــرة الأرواح الخيرة والأرواح الشريرة والأساطير الوثنية.

وبحلول عصر النهضة (القرن السادس عشــر) وعصــر التنويــر (القرن الثامن عشر) ثار المفكرون على النظرة اللاهوتية ورفضوا التفســير الديني وفكرة تدبير اللّه لأحداث العالم، وقالوا انّ الانسان هو مركز التــاريخ وأنّ التاريخ يتكّون من أفعال الناس ومساعيهم. فهي فلسفة تؤمــن بــالتغيّر

والتقدّم الحضاري. وقد صارت فكرة التقدّم الفكرة السائدة في تصوّر التاريخ العام للانسانية لدى فلاسفة عصر التنوير. لقد رأوا أنّ التقدم هـو القـانون الذي يسيّر تاريخ العالم، لأنّ الانسان كائن عاقل، والعقل يدعوه الى تحسين أحواله. فالتاريخ العالمي في نظر فولتير "سير متواصل في سـبيل التقـدم بقيادة العقل الانساني..."

وشغلت مسألة تقدم التاريخ أذهان فلاسفة المثالية الألمانية (نيتشـه – هيقيل...) وأصبحت فلسفة التاريخ قسما هاما من أقسام الفلسـفة. فالتـاريخ عند هيقيل ليس رواية ساذجة للأحداث ولا حقل عبر من الماضي، بل هـو التاريخ الكلي أي التاريخ الفلسفي الذي ينظر الى الوقائع نظرة غـير مقيّـدة بزمان ولهذا يرى هيقيل "أنّ كل حدث من أحداث التاريخ انما جـرى وفقـا لمقتضيات العقل". والعقل يميّز الانسان الحرّ بطبيعته، لذلك فانّ الأمم التـي لا تحقق الحرية لا تدخل محراب التاريخ لأنّ التاريخ يفصح عن تقدم الوعي بالحرية وتحقيقها، وبموجب التقدم يزداد الوعي بالحريـة. ويتنـاول هيقـل فلسفة التاريخ من ثلاثة جوانب هي : التاريخ الأصلي والتـاريخ النظـري والتاريخ الفلسفي. فالأول يقوم على رواية الأحـداث التاريخيـة وأعمـال العظماء. أمّا الثاني فيهتم بتاريخ أمة أو بلد قصد الافادة منـه واسـتخلاص العبر لذلك يطلق عليه هيقل مصطلح التاريخ الانتقادي. أمّا التاريخ الفلسـفي فيهدف عند هيقل الى اعمال الفكر فيه ودراسة التاريخ بواسطة الفكر الـذي يميّز البشر وبالتالي فانّ التاريخ الحقيقي للانسان لا يبـدأ الا مـع ظـهور الوعي، لذلك فانّ المجتمعات الأولى التي كانت تعتمد علـى الأسـاطير لا تكوّن جزءا من تاريخ الانسانية. ففكرة أنّ العقل يحكم التاريخ فكرة قديمة قد استقاها هيقل من الفلسفة اليونانية القائلة بأنّ العقل هو جوهر الطبيعة كمـا أنه جوهر التاريخ. ولا ينكر هيقل أنّ هناك حكمة إلهية وتدبير إلهي توجـه العالم وبالتالي فانّ كل ما يحدث في العالم يحدث طبقا لخطة إلهية.

ولكن الهيقليين الجدد (الماركسيون) رفضوا نظرة هيقل الدينية مما أفرز فكرة المادية التاريخية التي ترى أنّ الانسان هو مركز التاريخ وأن القوى الحقيقية التي تحكم التطوّر التاريخي متأتية من سلوك الانسان الذي يتصرّف متأثرا بالدوافع الاقتصادية وأن الحالة الاقتصادية هي التي تحدد النظم الأخلاقية والدينية والاجتماعية والسياسية. وأضاف ماركس أنّ التغيرات الاجتماعية هي نتيجة للتغيرات في العلاقات الاقتصادية، وهذه بدورها تنشأ عن عدم انسجام وسائل الانتاج مع طرق التوزيع مما يؤدي الى حدوث توتر لجتماعي ينتهي عادة بقيام ثورة تصحح في ظلها الأوضاع القائمة. فالتاريخ هو صراع للطبقات الاجتماعية وأنّ التناقضات الداخلية لأوضاع الانتاج هي القوى الدافعة لمسيرة التاريخ. فالنظرية الماركسية جاءت نتيجة منهج فلسفي شمولي عام. وقد برهن ماركس عن صحة نظريته من خلال بعض الأمثلة التاريخية. ولكن التاريخ نفسه يقدم أمثلة أخرى تعارض النظرية الماركسية والأحادية في تفسير التاريخ (أهمية العامل الاقتصادي)، فأروبا بقيت طيلة القرون الوسطى في انخطاط وركود رغم وجود تفاوت طبقي واقتصادي في المجتمع الأوربي... ولكن لا يمكن لأحد أن ينكر تأثير الماركسية على الكتابة التاريخية الى يومنا الراهن.

وبقدر ما أهملت النظرية الماركسة الجانب الروحي، فانّ أرنولد توينبي (1889–1961) (A. Toynbee) الذي ولد بانجلترا ودرس اللغتين اليونانية واللاتينية وعايش أحداث الحربين العالميتين والصدام بين المعسكرين الشرقي والغربي، يصرّ أنّ نظريته في التاريخ هي من مصدر لا هوتي. وقد عرفت نظريته بـ"التحدي والاستجابة". فالتحدي يعني وجود ظروف صعبة تواجه الانسان في بناء حضارته، وعلى قدر مواجهة الانسان لهذه الظروف تكون استجابته اما ناجحة اذا تغلب على هذه المصاعب أو فاشلة اذا عجز الانسان عن التغلب عليها. أمّا الظروف الصعبة فهي امّا طبيعية أو بشرية (بيئة قاسية – عدوان خارجي....). فكلما ازداد التحدي

تصاعدت قوة الاستجابة في نظر توينبي الذي يؤكد أن الحرب هي السبب الرئيسي لانهيار الحضارات والمجتمعات وأن مصير المعتدي الفناء (مثال اسبرطة في حربها ضد أثينا).

يذكر توينبي أنّ التاريخ فحص ودارسة وملاحظة لحركة الانسانية وتطوّرها من خلال بعض الأحداث لا جميعها، ولكن حقل الدراسات التاريخية متسع للغاية ولا حدود له. هذا وانتقد توينبي التقسيم الثلاثي للزمن التاريخي (قديم- وسيط- حديث)، كما انتقد نظرية هيقل القائلة أن ليس للفرد روح مستقلة وانّما هو جزء من المجتمع الممثل في الدولة. كما يرفض توينبي الحتمية التشاؤمية ونظرية التعاقب الدوري للحضارات لدى شبنجلر (1880-1936)

أمّا نظرية "التحدي والاستجابة" التي عرف بها توينبي فتقوم على:

- فكرة البنوة والأبوة القائلة أن بعض الحضارات ولادة حضارات سابقة مثل الحضارة الغربية الحديثة وليدة الحضارة الهيلينية، والحضارة الاسلامية حصيلة اندماج المجتمعين العربي والفارسي وهما بدورهما وليدا المجتمع السورياني. وهناك بعض الحضارات لا تنتمي بالبنوة الى حضارة أخرى مثل الحضارة المصرية الفرعونية.

- فكرة المدنية المقابلة للبدائية: فكل مجتمع اما أن يكون بدائيا أو متمدينا: في الأول تتبني الوحدة على الفرد، وفي الثاني على الطبقة.

- فكرة أوقات الاضطراب أو الفوضى: تكون في فترة انقراض مجتمع وقيام مجتمع آخر وفق مفهوم البنوة (مثال فترة القرون الوسطى المظلمة الواقعة بين وفاة الحضارة الهيلينية وقيام مجتمع أروبا المسيحي)

- فكرة الدولة العالمية وتوحيد العالم: يتمّ ذلك في نظر توينبي بواسطة الثورة التكنولوجية التي كوّن بها الغرب ثروته واستغل بها جميع المدنيات والتي قد تكون طريقة لتوحيد الجنس البشري.

- فكرة مرحلية الحضارة: يذكر توينبي أنّ الحضارات تمرّ بثلاث مراحل: مرحلة مولد أو تكوين، ثم مرحلة النمو وأخيرا مرحلة تدهور الحضارة وانهيارها. تأثّر توينبي بآراء ابن خلدون وآراء القديس أغسطين حول أهمية دور الدين في مسار تاريخ الانسانية حيث يذكر توينبي أنّ التاريخ هو تفاعل بين اللّه والانسان وهو انجاز للخطة الالهية، ولكن الفرد يتمتع في اطار هذه الخطة بحرية الارادة.

أما الفلسفة المعاصرة للتاريخ فهي بالأساس بنيوية في مرحلة أولى اذ جعلت من التاريخ علما معقّدا يتركب من فروع معرفية متداخلة، "فالتاريخ هو مجموع التواريخ الممكنة..." على حدّ قول برودال (1902-1985) الذي يرى في جدل التاريخ تفاعل مستويات ثلاثة داخل التاريخ أو الزمان وهي: المستوى الجغرافي والمستوى الاجتماعي والمستوى الفردي، ويعتبر هذا المفهوم للزمان التاريخي ثورة على أنصار التأريخ التقليدي الذين يعتبرون الزمان التاريخي ديمومة رتيبة متجانسة الايقاع ووحيدة الاتجاه. يؤكد برودال أنّ التاريخ متعدد الاتجاهات، وهو تواريخ متنوّعة ومتباينة، وأنّ الحدث في حدّ ذاته غير قابل للفهم اذا لم ينزله المؤرخ ضمن بنية أشمل (الأبعاد السياسية والاجتماعية والجغرافية) فإنّه يظلّ عاجزا عن ادارك معناه الحقيقي.

وفي مرحلة ثانية ومن الطابع البنيوي أصبحت فلسفة التاريخ تفكيكية في اطار فلسفة ما بعد البنيوية أو التفكيك الذي بلغ ذروة مدده في أوائل الثمانينات. وهو منهج للتفسير يعتمد على قراءة أولى تقليدية للوثيقة ثمّ قراءة ثانية تفكيكية تمكّن من ابراز مناطق غموض النصّ وتفكيك الثوابت.

ففي نظر التفكيكيين فانّ البنيويين قد فشلوا في تحقيق هدفـــهم وهــو انـــارة النّص وتفسيره وتحقيق معناه، "فقد انهمكوا في تحديد الأنســـاق والأنظمـــة وكيف تعمل، وتجاهلوا ماذا يعني النّص...، فتحوّل البنيويـــون فـــي نهايـــة الأمر الى سجناء للغة..."واعتبر التفكيكيون أنّه لا يوجد تفسير نهائي ومغلق لنصّ ما على أساس أنّ التفسير أو تحديد المعنى عملية تحدث في الزمـــن، ومن ثمّ فهي عملية مؤقتة بصفة مستمرة.

اختلفت فلسفة المسلمين للتاريخ عن الفلسفات الغربية. فمـــا وصـــل الينا من ثقافة العرب قبل الاسلام عن طريق الشعر الجاهلي (أيام العـــرب) والأنساب لا يدل على وعي واضح بفكرة التاريخ لديهم، علـــى أنّ ذلـــك لا يعني أنه لم تكن للعرب أنذاك حضارة فـــي العصـــر الجـــاهلي. وبظـــهور الاسلام كدين وتنظيم سياسي بـــدأ احســـاس الجماعـــة الاســـلامية بذاتـــها الحضارية وبمكانتها على ركح الأحداث العالمية. وانطلاقـــا مـــن القـــرآن والسنّة فانّ تاريخ الانسانية بالمفهوم الاسلامي هو حلقـــات مـــن الانحـــلال والتجديد. أمّا مصدر الانحلال فهو الزوغ عن الحق. وأمّـــا التجديـــد فـــان مصدره الرسل والأنبياء الذين بعثهم الله بوحي منه ليجددوا حياة الانســـان. فالتاريخ هو تلك الدورات الحضارية المتتابعة التي تهتدي كـــل دورة منـــها بنور النبوة مدة من الزمان ثم يعقب ذلك انحلال تدريجي لا يلبث أن يتكشف عن حقبة جديدة حتى كانت الرسالة المحمدية نورا هاديا الى يـــوم القيامـــة. ومن هنا كانت فلسفة التاريخ الاسلامية قائمة على أنّ اتجـــاه التـــاريخ فـــي الماضي والمستقبل نحو قيم الحق والخير اعتمادا على ما حواه القرآن مـــن "مفهوم متفائل للزمان وغائيّ للوجود وعليّ للتاريخ. وحول هذه المفـــهومات نشأت فلسفة التاريخ عند المسلمين" (الشرقاوي ، *ادب التاريخ عند العـــرب*، ص 247).

نشأت إذن بظهور الاسلام نظرة جديدة الى الوجود، فقد جاء القــرآن بنظرة عالمية الى التاريخ تتمثل في توالي النبوات التي هــي فــي أساســها رسالة واحدة بشّربها أنبياء عديدون، فكان لهذه العقيدة أثرهــا فــي العنايــة بتاريخ الأنبياء السابقين وبسنة الرسول. هكذا اختلطت نشأة علم التاريخ عنـد المسلمين بعلم الحديث من حيث المضمون والمنهج فغلب على غائية التـاريخ معنى العظة والاقتداء بأعمال السابقين والاعتبار بهم.

وتطورت مع ابن خلدون فلسفة التاريخ عند المسلمين، "فانتقلت مــن التفسير البطولي الى التفسير الحضاري". (المرجع الســـابق، ص 328) أي تفسير يحتل فيه المجتمع (العمران البشري) مكانة هامة ويستند الى قواعـــد العمران أو علم الاجتماع الانساني. كما يستند التفسير الحضـــاري للتـــاريخ الى قاعدة أنّ التطوّر هو سنة الحياة الاجتماعيـــة للانســـان وأنّ الحضـــارة تتعاقب على الأمم في أربعة أطوار هي : البـــداوة– التحضـــر– الـــترف– التدهور.

فابن خلدون هو أول من حاول "علمنة" التاريخ العربـــي، فكـــان أن صفى الحوادث من الخرافات والأساطير لأنها تتعارض وطبائع الأحـــوال، وكشف علل الميتافيزيقا في عملية التاريخ، ثم ربط الحوادث بقانون التطــوّر الاجتماعي والتغيير، فربط كهذا علم الاجتماع بعلم التاريخ ووضعهما فـــي مواجهة جدليّة. لقد تعامل ابن خلدون مع التاريخ باعتباره مكوّنا من وحـدات مغلقة أو دائرية، ووضع شرطا لقانون النمو والانحلال الحضاري هو شـوط العصبيّة. فلا يمكن تفسير التاريخ بدون تعليل وبدون اعتبار نظرية التعـــاقب الدوري للحضارات (البداوة – التحضر – التدهور). فالتاريخ حركة ونمـــوّ وأنّ التطوّر هو القاعدة الأساسية التي تسير عليها الانسانية.

قضايا فلسفة التاريخ

إنّ مجمل المحاولات لتفسير حركة التاريخ وفقـا لفلسـفة العصـر السائدة عند مختلف الأمم والشعوب هي مضمون فلسـفات التـاريخ علـى المستوى المنهجي من ناحية من وجهة النظر الفلسفية بالفحص النقدي الدقيق لمنهج المؤرخ لذلك عرفت بالفلسفة النقدية للتاريخ، وعلى مسـتوى تحديـد أنماط الحركة التي يتبعها التاريخ في سيره والقوانين التي تتحكم فيـه مـن ناحية أخرى فعرفت بالفلسفة التأمليّة للتاريخ.

فالأولى أهتمت خاصة بقضيتين هما: قضيـة التفسـير التـاريخي وقضية الموضوعية التاريخية. في حين اهتمت الفلسفة التأمليـة بمسـألتين هامتين هما : حركة التاريخ ومعنى التاريخ.

* قضية التفسير التاريخي : شغلت هذه القضيـة فلاسـفة التـاريخ كثيرا. وتمحورت نقاشاتهم حول امكانية ايجاد قوانين لتفسير الأحداث علـى غرار قوانين العلوم الطبيعية. فقسمت القضية المؤرخين الى شقين: أحدهمـا يقول بوجود قوانين عامة تحكم التاريخ (المدرسـة الوضعيـة والمدرسـة الماركسية) اعتمادا على فكرة العلية وأنّ كل الأحداث تنشأ بتأثير الأسـباب وحتمية وقوعها. في حين هاجم شق آخر فكرة القانون الكلي هجوما شـديدا على أساس أنّ كلّ حدث تاريخي له فرديته الذاتية الخاصة وأنّ التـاريخ لا يعيد نفسه وقالوا بالنسبية التاريخية وانتقدوا فكـرة الحتميـة التـي تلـتزم بالقوانين الكليّة (مدرسة الحوليات).

* قضية الموضوعية التاريخية: قضية شائكة شغلت ولا تزال بـال المؤرخين والفلاسفة: فهل بامكان المؤرخ التجرد من ذاته تماما؟ وأفضـى الجدل حول الموضوعية الى الاقرار باستحالة الحياد المطلق فـي البحـث التاريخي وأنّ المعرفة التاريخية شأنها شأن أية معرفة انسانية نسبيّة لتغلـب التحيّز على الانتاج التاريخي في أكثر الأحيان، هذا بالاضافة الى الاختيـار

الشخصي للمؤرخ للأحداث التي تبدو له هامة لعوامل ذاتية بحتة واختيار الأسباب المفسّرة للأحداث بترجيح علل على أخرى بحكم ميولاته الشخصية أو انتمائه الى مدرسة تاريخية معيّنة (ترجيع العامل الاقتصادي عند المؤرخين الماركسيين).

* حركة (اتجاه) التاريخ: شغلت هذه القضية الفلاسفة التأمليين وقسمتهم الى ثلاث فرق: فهناك من يقول أنّ التاريخ يلتزم مسارا مستقيما على طريق التقدم الصاعد أو التدهور الناكص. وهناك من يقول أنّ التاريخ يسير في دورات حضارية تمرّ بها الانسانية وهناك من يقول بأنّ حركة التاريخ لا تلتزم نمطا معينا. فأنصار الفريق الأول هم أنصار فكرة التطوّر من ماركسيين وبراجماتيين والتجربيين. أمّا القائلين بحركة التعاقب الدوري للحضارات أو التاريخ (ابن خلدون- فيكو- شبنلجر- توينبي...) فيرون أن المجتمعات الانسانية تمرّ بحلقات حضارية تنتقل فيها من طور الى آخر (من البداوة الى التحضر عند ابن خلدون- من التوحش الى المدنية عند فيكو...). ففي رأي شبنجلر الحضارة كائن عضوي طبيعي ينشأ فينمو ثمّ يزدهر فيشيخ حتى يفنى، وكلّ حضارة هي كيان مستقل منعزل تمام العزلة عن كيان غيره من الحضارات تكوّن وحيدة منغلقة على نفسها، ومانلاحظه من التشابه بين حضارة وأخرى انّما هو تشابه في الظاهر لا يتعدى الى الجوهر أي الى روح الحضارة، ذلك أنّ الحضارة عند شبنلجر انبعاث روحي لمجموعة من البشر يربطهم مفهوم متقارب للوجود، فينعكس ذلك على مختلف أنشطتهم في الدين والسياسة والاقتصاد والفن والحروب...

ويلتقي توينبي مع شبنجلر في كثير من المواضيع من خلال نظريتّه عن التحدي وردّ الفعل أو الاستجابة والتي فسّر بها حركة التاريخ على أنّ التحدي هو الذي يستثير الطاقات الخلاقة في المجتمع، فالظروف الصعبة هي التي تخلق الحضارات لا السهولة.أماّ انهيار الحضارات في رأي توينبي

فهو ناتج عن انحلال المجتمع من الداخل قبل أن يأتيه غزو من الخارج ليقضي عليه.

* معنى التاريخ : ارتبط البحث في هذه المسألة بتطوّر التفكير الفلسفي في الثقافة الغربيّة، فكان معنى التاريخ دينيا حين كانت الفلسفة دينية في العصر الوسيط الغربي، ثم أصبح عقلانيّا مع ظهور النزعة الانسانية في عصر النهضة التي دعت الى التحرر من هيمنة الكنيسة فازدادت الهوّة وسعا بين التفسير التاريخي والتأويل الديني مع فلاسفة التنوير حتى اذا كان القرن التاسع عشر وظهور فلسفة هيقل القائلة بوجود عنصرين هما الروح والمادة يحركان الأشياء ويمثلان العقل المطلق.

وخلاصة القول أنّ الفلسفات المختلفة التي وجدت الى حدّ الآن هي محاولات وقتية، فلا يمكن الحديث عن فلسفة للتاريخ مطلقة وشاملة لعموم التاريخ تجمع في مضمونها جميع الحركات الانسانية فيه وتفسّر تطوّره.

المراجع:

– س، يفوت، *الزمان التاريخي*، دار الطليعة، بيروت. 1991.

– ع.م. الشرقاوي، *أدب التاريخ عند العرب*، دار العودة، بيروت 1976.

– ر.غنيمي الشيخ، *فلسفة التاريخ*، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة 1988.

– م.ع. نظمي سالم، *جدلية التاريخ والحضارة*، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية 1996.

– س. بركات، *فلسفة الحضارة والتاريخ*، مطبعة جامعة دمشق، 1990.

– أ.م صبحي، *في فلسفة التاريخ*، الاسكندرية 1975.

- هيقل، *محاضرات في فلسفة التاريخ*، ترجمة امام عبد الفتاح أمام، دار الثقافة، القاهرة.

- Ladurie (L,R), *le territoire de l'historien,* Paris 1977.

- Vedrine (H), *les philosophies de l'histoire*, éd. Le seuil, Paris 1975.

- Hegel; *la raison dans l'histoire*, Paris 1973.

- Mairet (G), *le discours et l'historique*, Paris 1974.

- Braudel (F), *Ecrits sur l'histoire*, Paris 1969.

III. لا تـــاريـــخ بـــدون وثـــائـــق

" الوثيقة مقدسة والتأويل حرّ"

(الطالبي)

أهميـــّة الوثـــائق في كتابة التاريخ

لا يكتب التاريخ من عدم، لذلك يختلف المؤرّخ عما يكتبه القصّـــاص والرّوائي اللّذين بإمكانهما كتابة القصّة أو الرواية من محض الخيال. وبمـــا أنّ التاريخ هو فهم تطوّر الإنسان عبر العصور، فإنّ على المؤرّخ البحـــث عن مختلف مخلّفات الإنسان من آثار مكتوبة وغير المكتوبة وعن كلّ ما من شأنه أن يساعده على إعادة بناء تاريخ الإنسان أي ماضيه.

فلفظة وثيقة من حيث مصدرها اللغوي أتت من وثق به وثاقـــة أي ائتمنه. أمّا اللفظة الفرنسية (document) من أصل لاتيني فتعني يعلم ولـــها معنى قانوني أي الحجة التي تقنع القاضي عند أصدار حكمه. وبالتالي فـــانّ كلمة وثيقة تعتبر أحسن مقابل للكلمة اللاتينية اذا استعملناها بمعنى الحجـــة المكتوبة فقط، لذلك فانّ بعض المؤرخين أمثال العروي يرى أنّ كلمة وثيقـــة ضيّقة ويقترح لفظة شاهدة (ج شواهد) لكلّ أنواع مخلفات المـــاضي مـــهما كانت أشكالها وموادها ونوعيتها، أي "كل ما يمكن أن يكشف الينا شيئا مـــن ماضي الانسان" (L.Febvre).

وقد بلغ الأمر ببعض مؤرخي القرن التاسع عشر الـــى القـــول أنّ التاريخ لا يبدأ الا اذا ما توفرت وثائق تستحق الثقة، وجعلـــوا مـــن مـــهام

المؤرخ الأولى البحث عن الوثائق وبعثوا لذلك علما قائم الذات لــه قواعــده وأدوات عمله ومناهجه (heuristique) الا أنّ مفهوم الوثيقة ما أنفك يتطـوّر ليشمل كلّ مصدر اعلام من شأنه أن يمكّن المؤرخ من معرفـــة المـــاضي البشري والمجال على أساس أنّه لا يمكن الفصل بيـــن الانســـان ومحيطـــه الطبيعي والبيولوجي.

وعن أهميّة الوثائق في كتابة التاريخ قال بعضـــهم إنّـــها كـــالوقود بالنسبة للمحرك الانفجاريّ :

" *L'histoire se fait avec les documents comme le moteur à explosion fonctionne avec du carburant* " (H.I Marrou, *De la connaissance historique*, p. 65).

وعن دور الأرشيف وأهميتها في حفظ وصيانة الوثائق المكتوبة قال بعضهم إنها بمثابة خزانات المعلومات التاريخيّة إلا أنّ التفاوت بين الـــدول في علاقتها بالوثائق كبير بحسب تقاليدها في المجـــال التوثيقـــي. فـــالدول العظمَى عظيمة كذلك بعدد الوثائق التي تضمها خزاناتها وأرشيفاتها، والدول المتخلفة متخلفة بالنظر إلى قلة رصيدها مـــن الوثـــائق ونوعيـــة علاقتـــها بموروثها الوثائقي.

فقد يتسبب فقدان الوثائق أو تلفها في بقـــاء العديـــد مـــن المســـائل غامضة أو بدون جواب تماما، إذ لعامل الصدفة دور كبـــير فـــي اكتشـــاف الوثائق خاصة الأثريّة منها عند القيام بأشغال كبرى كفتح الطرقات الســـيّارة أو حفر مأوي السيارات التحتيّة أو تهيئة أحواض السدود ...

وقد تتعرض الوثائق أثناء تلك الأشغال الكبرى أو الحفريـــات إلـــى التلف أو التهشيم فتعسر بذلك المعرفة التاريخيّة الدقيقة. كما قد يتلف الإنسان بدوره عن قصد أو غير قصد النقائش مثلا عند إعادة اســـتعمال الحجـــارة

القديمة في البناء. هذا بالإضافة إلى ما تسبّبه عوامل التعريّة من تلف أو طمس.

وقد تتوفر أحيانا للمؤرّخ كميّات هامة من الوثائق عن المسألة التي يدرسها فيواجه آنذاك مصاعب من نوع آخر مثل الفرز والقراءة والتصنيف والانتقاء ... ويتعرض لمثل هذه الوضعيّة أحيانا مؤرخو الفترة المعاصرة أو التاريخ الآني الذين يستغلون أصنافا عديدة ومتنوّعة جدّا من الوثائق المكتوبة والمصوّرة والسمعيّة البصريّة وغيرها ...

هذا والمهم عند المؤرّخ ليس معرفة الحدث في حدّ ذاته بل فهمه أي فهم محتوى الوثائق المتعلقة بذلك الحدث. ويستوجب هذا الفهم من المؤرخ نظرة نقديّة ببعديها الخارجيّ والداخليّ .

فالنقد الخارجيّ (critique externe) يتمثل في التثبت من مدى صحة الوثيقة (نصّ أصلي أم محرّف ؟)، مصدره أي كاتبه ؟ متى كتبه؟ أين كتبه ؟ ما هي الظروف التي كتب فيها النصّ ؟ هل كان الكاتب معاصرا للحوادث التي كتب عنها ؟ هل للكاتب ميولات مذهبيّة أو سياسيّة معيّنة ؟...

أما النقد الداخليّ (critique interne) فيشمل التأويل، أي ما قاله المؤرخ أو ما أراد أن يقوله ومدى مصداقيّته : هل بالنصّ أخطاء؟ هل هناك نزعة لدى صاحبه للتغليط ؟ هل المؤرخ شاهد عيان ؟ أم هل ينقل عن غيره ؟ فالنقد الداخلي يعرف أيضا بالنقد الباطني وهو عبارة عن تحليل للوثيقة بقصد تفسيرها وادراك معناها وذلك بتفسير ظاهر النصّ وتحديد المعنى الحرفي له من الجانب اللغوي اذ لا بد لفهم كلّ نصّ تاريخي معرفة اللغة التي كتب بها وفهم دقائقها. ثمّ انّ النقد الداخلي يشمل أيضا معرفة أغراض الكاتب مما كتبه من خلال ما بالنصّ من تلميح أو استعارة أو مجاز أو غموض...

يهدف إذن المؤرّخ من خلال دراسته للوثيقة بلـــوغ المـــاضي، أي إعادة بنائه وهي عمليّة - على عكس ما يظن الكثـــيرون -معقّــدة وتمــرّ بمراحل عديدة انطلاقا من التساؤلات وطـــرح الفرضيّــات إلــى حصــول المعرفة التاريخيّة .

مواد عمـــل المؤرّخ : أصناف الوثائق

تكتسي الوثيقة أهمية قصوى في البحث التاريخي ولدى المؤرخيـــن حتى أنّ التهافت عليها والبحث عنها وأحيانا احتكارها من طـــرف البعـــض منهم واكتنازها أمر يكاد عاديا في أوساط الباحثين الذين يحاولون توظيـــف الوثائق واستنطاقها واستثمارها بمثابة رأسمال.

تكوّن مجموع الوثائق مواد عمل المؤرّخ وتتميّز بـــالتنوّع والتعـــدد نذكر منها خاصّة :

* النصوص ووثائق الأرشيف : وهي الصنف المحبّذ للمؤرّخ نظرا لتميّزه بالدقة أكثر من غيره. إلاّ أنّ تغيّر الخطوط عبر الأزمنة واختلافـــها من ناسخ إلى آخر يستوجب من المؤرخ معرفة وإلمامـــا بعلـــم الخطـــوط (paléographie) ليتمكّن من تحقيق النصوص وقراءتها القراءة الصحيحـــة. فتحقيق المخطوطات من مهام المؤرخ وخاصة المختص في الفترة الوســيطة ولئن أصبح من الصعب اكتشاف مخطوطات جديدة والمؤرخ في هذه الحالة مدعو الى استغلال ما توفره مصادر أخرى - معظمها مازال مخطوطـــا - ككتب النوازل والفتاوى والمناقب والأحكام والحسبة والوثائق وغيرها مـــن المؤلفات الفقهية وكتب الطبقات والتراجم والسير والانساب...

أمّا وثائق الأرشيف فهي نوعان:

- الأرشيف الرسميّ أو الحكوميّ (محاضر جلســـات، مراســـلات مختلف الوزارات، معاهدات دوليّة، اتفاقيـــات، دفـــاتر جبائيّـــة ...) وهـــي

محفوظة عادة " بدور الأرشيف الوطنيّة (Les Archives Nationales) التي تمثل على حدّ قول بعضهم "جرن التاريخ" (Grenier de l'histoire) (محمد أحمد حسين، *الوثائق التاريخيّة*، ص 4)

- الأرشيف الخاص : وهي على ملك الأفراد أو العائلات أو المؤسسات الخاصة ويستوجب الإطلاع عليها ترخيصا من أصحابها . (عقود زواج، عقود ملكية، مذكرات، رسائل شخصية ...) من هذا الصنف نجد سجلات عدول الاشهاد المحتوية على عقود مختلفة تهم الحياة الاجتماعية (زواج - طلاق - قسمة ارث - هبة - وصية...) والاقتصادية (بيع - شراء - تكوين شركة - كراء - اقتراض...). فهي وثائق قريبة جدا من الواقع المعاش والحياة اليومية.

* الصحف: منها ما هو حكومي كالرائد الرسمي (*Journal officiel*) وما هو خاص. قد تكون الصحيفة يومية، أسبوعية، قومية، جهوية أو محلية. لكن مهما كانت نوعيتها فعلى المؤرخ الأخذ بعين الاعتبار اتجاه الصحيفة ونوعيتها، وهي معلومات نجدها عادة مرسومة تحت اسم الصحيفة بالصفحة الأولى (على سبيل المثال: "الشباب تصدر ضاحكة وعابثة مازحة"

L'action tunisienne, quotidien indépendant de – défense des intérêts tunisiens.

* الوثائق السمعية البصرية: هذا صنف من الوثائق في تطور مطرد في السنوات الأخيرة بسبب الاستعمال المكثف للراديو والتلفزيون والسينما والفيديو ...وهي كبعض المصادر الأخرى قابلة للتزوير بسهولة عن طريق عملية التركيب (montage).

* المؤلفات الأدبية: توفر معلومات عن الأوضاع الاجتماعية (طرق العيش، أنماط الحياة، العادات، ...). يكفي أن نذكر بأهمية الشعر الجاهلي

في وصف المجتمع العربيّ قبل الإسلام أو قصص الكاتب الروسي تلســتوي (Tolstoï) في وصف المجتمع الروسيّ في القرن XIX أو قصة جرمينـــال للكاتب زولا عن العمال والثورة الصناعية.

* الأعمال الفنيّة: توفّر أيضا للمؤرّخ جملة من المعلومات. نذكـــر على سبيل المثال أهميّة اللوحات الفسيفسائيّة في دراسة المجتمع الرومـــانيّ أو لوحات الرسامين الإيطاليّين أو الهولنديين لفهم عصر النهضة الأوربيّـــة. فهذه الأعمال الفنيّة هي بمثابة النصوص بالنسبة للمختص في تاريخ الفنّ.

* الصور الشمسيّة: إنّ أهميتها الوثائقيّة في تزايد مطرّد منذ القـــرن XIX رغم أنها صنف من الوثائق القابلة للتحريف والتزوير عـــن طريـــق التركيب (montage). لذا وجب على المؤرّخ استعمالها بحذر كبـــير. لكـــنّ أهميّتها يقينيّة ودورها أساسيّ في بعض الحالات : على سبيل المثال الصور الملتقطة في الاستكشاف الجوّي عن الآثـــار بواســـطة الطـــيران والأقمـــار الصنّاعيّة (أهميّة الصور التي التقطها الجنرال الفرنسي بـــواداز (Baradez) في الجنوب الجزائري على اثر الحرب العالميّة الثانيّة والتـــي مكّنـــت مـــن تحديد الفاصل بين المجال الرومانيّ والصحراء النوميديّة بواسطة سلسلة من المنشآت الحربيّة والمدنيّة أو ما يعرف بـــ (Fossatum Africae).

* الوثائق الأثرية: تشكل مجموعة المخلفات الأثرية مـــــن عمـــارة ونقائش ومسكوكات وخزفيات.... مصدرا هاما لمؤرخي العصور القديمــــة والوسيطة رغم ما تتصف به هذه الوثائق من نقائص : فهي لا تمثل إلا قسما ضئيلا مما أنتجه الإنسان أو استعمله في تلك الحقب التاريخية البعيـــدة، ثـــم أنها كثيرا ما تتعرض أثناء الحفريات للتلف أو التهشيم نتيجة عوامل طبيعيـــة أو بشرية. فهي إذن توفر معلومات منقوصة وجب على المؤرخ اســـتكمالها بمصادر أخرى خاصة المكتوبة منها. فالمخلفات المادية لا تمكننا وحدها من معرفة الواقع الاجتماعي بأكمله في الماضي لذلك يرفض "علم الآثار الجديـد"

(Archéologie nouvelle) رفضا باتا تلك التفرقة المألوفة بيـــن العنـــاصر المادية وغير المادية لثقافة شعب ما، وهذا يستوجب من الأثري اليوم اعتماد أدوات بحث وطرق استكشاف أخرى تأخذ بعين الاعتبـــار الصنفيـــن مـــن العناصر المكّونة للثقافة.

* المصادر الشفويّة: يستغلّ أيضا مؤرخ الفترة المعاصرة الشهادات الشفويّة لشهود عيان عاشوا الأحداث أو كانوا أحد أطرافـــها. هـذا وعلـــى المؤرخ أن يعدّ قبل استجواب الشاهد أسئلة دقيقة وواضحة وأن يحاول كسب ثقة المستجوب ليبوح له بأكثر ما يمكن من المعلومـــات. علـــى أنّ بعـــض المستجوبين يعمدون إلى المبالغة، فعلى المؤرخ استغلال شهاداتهم بكثير مـن الحذر واليقظة. وبما أنّ مصدر الوثيقة الشفويّة هي الذاكـــرة، كـــان علـــى المؤرخ أن يفهم كيفيّة عملها على أساس أنّها "عمليّة إعادة تركيب عنـــاصر أحداث الماضي" (مارك بلوك). ولعلّ ما تتسم به الشهادات من ذاتية ونزعـة المستجّوب للدفاع عن نفسه أو المغالاة في تمجيد أعماله، هـــو مـــا يفســـر عزوف بعض المؤرخين عن استعمال هذا الصنف من المصـــادر وأحيانـــا رفضهم لها رفضا قطعيا لأسباب مبدئية أكثر منها لقناعات حقيقية.

يتضمن المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة بتونس وحدة مختصّة تعنى بالتاريخ الشفوي والتراث السمعي البصري تمتلك رصيدا هامـــا مـــن التسجيلات لشهود عيان لأحداث مختلفة خاصة في الفترة الاستعمارية.

تتوفر إذن للمؤرّخ وثائق متنوعة وعديدة تستوجب منه التعامل معها بحذر وبحسّ نقدي. فالتاريخ "لا يتجدّد باكتشاف وثائق جديدة بقدر ما يتجـدّد بنوعيّة الأسئلة التي يطرحها المؤرخ على الوثائق وتأويله لها".

الوثيــقة والتــأويل

يعدّ التاريخ من أكثر العلوم الإنسانية ارتباطا بالوثيقة، حتـــى إنّــه بدونها تستحيل الكتابة التاريخية. إنّ علاقة المؤرخ بالوثيقة علاقــة حميمــة وقديمة في نفس الوقت، فالوثيقة ضرورية لاستعادة المــاضي الإنســاني أو إضاءة بعض جوانبه. إلاّ أنّ الوثيقة قد لا تكون دائما صادقة فيما تدعيه، لـذا وجب على المؤرخ التساؤل عن مدى صدق أصحابها وعن مواقفهم المذهبيّة أو الايديولوجيّة، كما وجب عليه عدم الثقة العمياء بمحتوى الوثيقة. فالوثيقــة المزوّرة لا تقلّ أهمية لدى المؤرخ عن الوثيقة الصحيحـــة، فمــن واجــب المؤرخ التساؤل عن دواعي وأسباب تزويرها والتعامل معــها بكــلّ حــذر ويقظة، ولنا في تراثنا الاسلامي أحسن مثال عــن ذلــك وهــي الأحــاديث الموضوعة التي صيغت لأغراض سياسية وميولات مذهبية معيّنة.

فلا شكّ أن التاريخ يتجدد باكتشاف وثائق جديدة مكتوبة أو أثريــة أو غيرها، ولكنه يتجدد أيضا بقراءات مختلفة للوثيقة الواحدة وبتعــدد الأســئلة المطروحة على الوثيقة أي بالتمعن بدقة فيما يقال في الوثائق ولمــاذا يقــال بتلك الطريقة دون غيرها. وهو السبيل إلى كتابة التــاريخ وإعــادة كتابتــه بمناهج مختلفة، وكل كتابة جديدة إنما هي تجاوز لمجموعة من المســلمات والحقائق التي أفرزها البحث السابق وليست بالتــالي اجــترارا لخلاصــات الكتابة السابقة. فالركون إلى مثل هذا الإجترار دون نقد وتمحيص وتجديــد للمقاربة يفضي إلى كمية هائلة مــن الدراســات ذات العنــاوين المختلفــة والمضامين المتشابهة.

تحليــل بعــض الوثــائق

تكتسي حصص الشغال الموجّهة أهمية كبيرة في دراســة الطــالب بشعبة التاريخ اذ يتدرب فيها على مناهج تحليل ودراسة مختلــف الوثــائق وطرق التعامل معها.

* النصّ التاريخي

تختلف منهجيّة شرح النّص التاريخيّ عن منهجيّة المقالة التاريخيّـــة من ناحية وعن شرح النصّ الأدبيّ أو الفلسفيّ من ناحية أخرى.

يشتمل شرح النصّ التاريخيّ على أربعة عناصر هي:

التقديم (La présentation): ولم نقل المقدمة لأنّ هذه تكـــون فـــي المقالة، في حين يتضمن تقديم النصّ عناصر فرعيّة مضبوطـــــة ويتضمـــن معلومات عن :

– نوعيّة الوثيقة: (رسالة، معاهدة، خطاب، صورة، خريطة، مقـــال صحفيّ...). فنوعيّة الوثيقة تحدّد طريقة التعامل مع النصّ. لا يسلك المؤرّخ نفس التمشي عند شرح خطاب سياسيّ أو معاهدة مثلا. بعض الأصناف مـــن الوثائق تستوجب منه الحذر والحسّ النقديّ المرهف.

– المصدر: التعريف بصاحب النصّ وبالكتاب الذي أخذ منه النصّ. ليس على الطالب تقديم ترجمة كاملة ومطوّلة للمؤلف بـــل التركـــيز علـــى جوانب من حياته لها صلة بالنصّ وتساعد على شرحه. كذلك عليـــه عـــدم نسيان التعريف بنوعيّـــة التـــأليف (كتـــاب تراجـــم- مذكـــرات، طبقـــات، حوليّات، ...)

– الإطار التاريخيّ: وضع النصّ في إطاره التاريخيّ الداخلـــي أو الخارجيّ، أي جملة الأحداث التي لها صلة بالنصّ وتساعد على فهمه.

التحليل (L'analyse): هـــو اســـتخراج الفكـــرة العامّـــة للنـــصّ وعناصره. فالتحليل هو قبل كلّ شيء تلخيص للنصّ.

قد تكون العناصر واضحة ومرتّبة إذا ما كان النصّ مـــهيكلا، فـــي شكل فقرات تفرد كلّ فقرة بفكرة رئيسية أو بوحدة في المحتوى وقد تكـــون

متداخلة إذا ما كان بالنصّ تكرار أو استطراد، فعلى الطالب آنذاك ترتيبها وتجميعها في عناصر.

يتماشى حجم التحليل مع حجم النصّ، وعموما فإنّه لا يكوّن عنصرا طويلا. لكنّ رغم ذلك فإنّ له أهميّة كبيرة إذ من خلال التلخيص يقيّم الأستاذ مدى فهم الطالب للنصّ وقدراته على التأليف والاستيعاب.

الشرح – التعليق (explication- commentaire):

هو شرح عناصر التحليل وذلك بإثراء محتوى النصّ اعتمادا على الزاد المعرفي المتأتي للطالب من الدروس العامّة والأشغال التطبيقيّة والقراءات الشخصيّة. كما يتضمن الشرح أيضا تفسير الألفاظ الهامّة في النصّ والمصطلحات (مثل مصطلحات النظام الإقطاعيّ إذا ما كان النصّ يتعلق بالمجتمع الأوربيّ في القرون الوسطى....). ويشتمل الشرح أيضا على توضيح كلّ ما يرد مبهما في النصّ أو في شكل تلميح أو إشارات خاطفة. وفي هذه الحالة على الطالب تفسير ذلك وتعليله وإدراك ما أراد أن يقوله المؤرخ بصفة غير صريحة... وبذلك يبرهن الطالب عن قدراته النقديّة وفهمه العميق للنصّ ولمقاصد المؤلف.

ليس الشرح استعراضا للمعارف وفرصة لتقديم كلّ المعلومات سواء ما يتصل منها بالنصّ أو ما لا يتصل. فالشرح له حدوده ومواصفاته وتقنياته، لذلك على الطالب تجنب الأخطاء التالية:

– محاكاة النصّ أو سلخه (paraphrase): من الأخطاء الأكثر شيوعا عند الطلبة وأفدحها خطرا والتي لا تغتفر للطالب فينعكس ذلك على العدد الضعيف الذي يسند له يوم الامتحان سواء أكان السلخ لكامل النصّ أو لجزء منه بإعادة ما جاء في النصّ بعبارات أخرى دون أي إثراء أو إضافة تذكر. وكثيرا ما يعمد الطالب في هذه الحالة إلى الاستشهاد المطول بمقتطفات من النصّ كتعلية لا غير ليغطي عن عدم فهمه للنّص. وهي في

الواقع عملية تبرهن أن الطالب غير قادر على إثراء النصّ، أي غير قادر على الإضافة المطلوبة منه في شرح النصوص. فالمحاكاة تقترن بغياب الحسّ النقدي لدى الطالب وبعدم تمكّنه من المنهجيّة القويمة وبعدم فهمه للموضوع أو لمحتوى النصّ. ذلك أنّ عملية شرح النصّ تستوجب زادا معرفياً هاماً وثقافة تاريخيّة عامة أكثر مما تستوجبه المقالة مع معرفة استغلال المعلومات وفق ما يتطلبه شرح النص.

– كثرة الاستشهادات: كثيرا ما يعمد الطالب بتعلية الالتصاق بالنصّ – إلى الإكثار من الاستشهادات حتى يصبح تحريره بمثابة سلسلة من الاستشهادات الواحدة تلو الأخرى تفصل بينها بعض الجمل والقوالب الفارغة الدالة على ضعف مستوى صاحب الامتحان وعجزه عن الشرح. لذا وجب انتقاء الاستشهادات وعدم المبالغة في ذكرها.

– تحوّل شرح النصّ إلى مقالة: وهو خطأ لا يقلّ فداحة عن المحاكاة. وفي هذه الحالة تختلط الأمور على الطالب ويعجز عن تحديد المطلوب منه فيتحوّل الشرح إلى مقالة في حين أنّ الفرق شاسع بينهما: فالشرح لا يعني استعراض الزاد المعرفي ولا يجب أن يتّخذ النص تعلة لبسط المعارف.

– سوء الفهم أو الفهم المعاكس: فلئن كان على الطالب عند الشرح الكشف عما لم يقله المؤرخ أو الكاتب أو عما أراد أن يقوله من بين الأسطر، فإنّ عليه أيضا الفهم جيّدا لما ورد في النصّ ولا يتأتى ذلك إلا بالقراءة المرار العديدة للوثيقة. أمّا إن اكتفى الطالب بقراءة سريعة للنصّ فإنه حتما سيسيء الفهم ويفسح بالتالي المجال لحدسه وخياله وللفهم المعاكس.

– الضبابيّة: وهي أيضا علامة من علامات عدم فهم الطالب لما هو مطلوب منه، فتطغوا آنذاك على تحريره العموميات والضبابيّة ويغيب النقد

بسبب الثقة التامة لما ورد على لسان المؤرخ أو صاحب النص قــد تكــون الضبابية ناتجة أيضا عن قلة المعلومات أو عن عدم قــدرة الطــالب علــى توظيف معلومات أو تبليغها بلغة واضحة وسليمة.

– عدم التوازن بين عناصر الشرح: وهو خطأ يرجع عــادة إلــى التخطيط المتبع.

– إصدار أحكام تقييميّة: شرح النص هو قبل كلّ شيء تحليل وثيقة وليس فرصة لإصدار أحكام تقييميّة. فالتاريخ ليس بمحكمة ولا مجال للحكــم سلبا أو إيجابا على صاحب النصّ. إلا أنّ ذلك لا يعني أيضا غيــاب النقــد الذي يبقى من مهمة شارح النصّ وركن هام من أركان عملية شرح النــصّ التاريخي اذا ما استوجب محتوى النص ذلك.

الخاتمة: لا نحو صل فيها ما قيل في العناصر الثلاثة الســابقة، ولا نطرح فيها إشكاليات جديدة وهي ليست مجالا للتأكيد فيها على فكرة ســبقت بتكرارها في الخاتمة. فالوظيفة الأساسيّة للخاتمة هي إبراز أهميّــة النــصّ كوثيقة تاريخيّة وتبيان أوجه الطرافة فيه وما يميّزه هذا النــصّ عــن بقيــة النصوص الأخرى التي تتناول نفس الموضوع.

المراجــع:

- Nouschi (A), *Commentaire de textes et de documents*, Paris 1969.

- Nouschi (A), *Initiation aux sciences historiques*, pp.40-48.

- Arnaud (P), *Le commentaire de documents en histoire ancienne*, ed. Belin, Paris 1993

* الخارطة التاريخية

تمثّل الخارطة أداة هامّة من بيـــن أدوات عمـــل المـــؤرّخ. فـــهي ضروريّة لضبط المواقع وهي وسيلة بيداغوجيّة ناجعة للتعبير عن حـــدث أو ظاهرة (توزيع السكان، حركات هجرة، تحركات قبائل، مســـالك تجاريّـــة، تنقلات جيوش، نتائج اقتراع انتخابيّ...)، لذلك فان الخارطة التاريخيـــة لا تقل أهميّة عن النص التاريخي أو عن أي وثيقة تاريخية أخرى.

يخضع تحليل الخارطة إلى منهجيّة معيّنـــة وإن اشـــتركت بعـــض عناصرها مع أصناف أخرى من الأشغال مثل شرح النـــصّ التـــاريخيّ أو تحليل الجدول الإحصائيّ. لكن لا بدّ من مراعاة خصوصيات كلّ خارطـــة ومحتواها عند الشرح.

يعتمد التحليل على ثلاثة عناصر رئيسيّة هي:

التقديم: ضبط تاريخ الحدث المجسّم على الخارطـــة ووضعـــه فـــي إطاره التاريخيّ داخليًا أو خارجيًا إن لزم الأمر دون الإطالة في ذلـــك، لأنّ المطلوب ليس استعراض كلّ المعلومات المتعلقة بالفترة التي سبقت الحـــدث المعبّر عنه في الخريطة، بل تنزيل الحدث في ظرفيته التاريخيّة بكلّ إيجـــاز ودقة في آن واحد.

التحليل: التركيز في هذا العنصر علـــى الظواهـــر البـــارزة علـــى الخارطة ومحاولة تفسيرها بمختلف العوامل المتدخّلة في صنـــع الحـــدث أو الظاهرة.

الخاتمة: استخلاص الاستنتاجات من التحليل لفتح آفاق جديـــدة لمـــا بعد الحدث المجسّم على الخارطة.

* الوثيقة الإحصائية

لا ينحصر شرح الوثائق في النصوص التاريخيّة، بل قد يكون لخارطة تاريخيّة أو لمخطّط أو لصورة أو لجدول إحصائيّ.

قبل تقديم التوجيهات المنهجيّة بشأن شرح الوثيقة الاحصائية نعرّف بالتاريخ الكميّ (histoire quantitative) أو ما يعرف أيضا بالتاريخ السلسليّ (histoire sérielle) الذي ما انفك يتطوّر منذ ظهوره في الثلاثينات في إطار مدرسة الحوليات مع دراسات كلّ من سيميان (F. Simiand) ولبروس (F. Labrousse) وشونو (P. Chaunu). وقد ولع هذا الأخير بالتاريخ السلسليّ حتى اعتبره الشكل الوحيد للبحث التاريخيّ، فقال عنه:

« *L'histoire depuis vingt ans est sérielle, à la limite même, elle n'est plus que sérielle ... Il n'y a plus guère d'histoire digne de ce nom, aujourd'hui, qui ne soit sérielle* » (P. Chaunu, *Séville et l'Atlantique*, p. 123, 128)

يعتمد التاريخ الكميّ على استغلال سلاسل مرقّمة لمعطيات متجانسة قابلة للمقارنة وممتدة على فترة زمنيّة طويلة وذلك حتى تتبيّن للمؤرّخ التغييرات والتطوّرات الحاصلة وهو ما أسماه عبد اللّه العروي "التاريخ بالعدد".

لقد كان للأزمة الاقتصادية العالميّة لسنة 1929 دور كبير في ظهور البحوث الأولى في التاريخ الكميّ في أوائل الثلاثينات حول تطوّر الأجور والأسعار خاصّة. ومنذ ذلك التاريخ لم تنفك تتطور الدراسات الكميّة باطراد مستغلة التطوّر التقني والثورة المعلوماتية، وقد شكّل استعمال الحاسوب في الدارسات التاريخية ثورة في نظر بعضهم اذ ضاعف القدرة الحسابية من جهة وأدخل العدد في ميادين غير الانتاج المادي من جهة أخرى. وهو ما يفسّر اعجاب بعض المؤرخين بالتاريخ الكمّي والدفاع عن خدماته وتعداد

فوائده التى منها دحض الأحكام المسبّقة للمؤرخين التقليديين. ورغم ذلك فانّ العديد من المؤرخين محترزين ازاء التاريخ الكميّ وأهميته ومحدودية استغلاله في الدراسات التاريخية، وأنّه يشكل نمطا من بين أنماط الكتابة التاريخية لا غير، ويستوجب شروطا لابدّ من توفرها (طول المدة – انتظام الاحصائيات...)، ولا يمكن تطبيقه على كلّ المجالات اذ يبقى المجالان الاقتصادي والاجتماعي من أفضل المجالات التطبيقية للفترتين الحديثة والمعاصرة اللتين تتوفر فيهما معطيات رقميّة بالنسبة للأقطار التى لها تقاليد أرشيفية. ثمّ انّ توفر المعطيات المرقمة ليس في كل زمان ومكان (غيابها في الفترة القديمة والوسيطة في بعض الأماكن)...

قد يربك شرح الوثيقة الإحصائية الطالب بقسم التاريخ لتعوده على شرح النصوص التاريخية وقلة تعاملة مع هذا الصنف من الوثائق. في حين أن الوثيقة الاحصائية لا تقل تعبيرا عن النصّ، بل أحيانا أكثر تعبيرا خاصة اذا ما تعلقت بتطور وضعية أو إنتاج يمكن تحويله بسهولة من سلسلة رقمية إلى رسم بياني يبرز من أول وهلة التطور واتجاهه العام (تزايد أو انخفاض أو استقرار...) ومختلف مراحله مع محاولة تفسير الظواهر التي تبدو غريبة أو غير عادية أو استثنائية وانعكاسات هذه الظواهر على الصعيدين الاجتماعي والسياسي أو غيرهما بحسب نوعيتها.

لا تختلف منهجيّة شرح الجدول الإحصائيّ كثيرا عن منهجيّة شرح النصّ التاريخيّ: فهي تشتمل على العناصر التالية:

– تقديم الوثيقة من حيث النوعيّة والمعطيات التي تتضمنها والإطار التاريخيّ.

– التعبير عن تطوّر المعطيات الواردة في الجدول برسم بيانيّ يبرز بسرعة توجّه التطوّر وذلك بتحويل المعطيات من مجرد أرقام جافة إلى شكل بياني معبّر.

– التحليل: هو تفسير التغييرات وتعليل ملامح التطوّر.

مثال تطبيقيّ: مقابيض الخزندار في 1710 و1730 (بالدينار)

العرش – القبيلة	1710/11	1730/31
أولاد عون	13.800	7.069
أولاد بوسا لم	2.270	11.297
أولاد سلطان	563	2.148
جندوبة	5.169	9.714
قايد رياح	500	425
أولاد بليل	319	1.486
نفزة	913	3.657
ورتتان	12.455	5.019
كلاع	325	6.940
ورغة	1.029	5.912
مليتة	487	1.563
طياش أولاد سعيد	7.490	1.536
الكعوب	367	308
جلاص	18.620	10.150
الأعراض	34256	61.164
نفطة	9.906	18.922
توزر	12.325	23.419
قفصة	20.139	22.259
الجملة	263.782	383.508

المصدر: M,H, cherif, *Pouvoir et société dans la Tunisie de Husayn bin Ali*, II, p. 96

التقديم :

– نوعية الوثيقة: قائمة في مقابيض الخز ندار، وثيقة جبائية من الأرشيف العام للحكومة التونسية (A.G.T) ملفي 3 و11. ومثل هذه الوثائق معبرّة عن نوعية العلاقة بين السلطة و"الرعية".

– الظرفية التاريخية: التاريخ الأول (1710/11) يمثل بداية الحكم الحسيني، أمّا التاريخ الثاني (1730/31) فيرمز إلى أواخر فترة حسين بن علي التي حكم البلاد من 1705 إلى 1740. وقد شهد عهده حدثا هاما هو ثورة علي باشا في 1728/29. فهل كان لذلك الحدث انعكاسات على المستوى الجبائي ؟

التحليل :

آنّ مقارنة مقابيض الخزندار في سنتي 1710 و1730 تمكّننا من ملاحظة عامة هي أنّ المداخيل قد ازدادت وارتفعت من 263.000 دينار الى 383000 دينار أي بزيادة تقدر بحوالي 45%.

أمّا المقارنة الأفقية أي على مستوى المكان فتمكّننا من توزيع هؤلاء إلى ثلاثة أقسام كبرى: قسم أول عرف تخفيفا لجبايته، وقسم ثان أثقل كاهله، في حين استقرت الوضعية الجبائية لدى سكان القسم الثالث.

نجد في مقدمة الذين شملهم تخفيف الجباية القبائل التي ساندت الباي حسين بن علي في محنته ضد علي باشا في 1728. من هذه القبائل نذكر عرش جلاص التي شهد مبلغ جبايته إلى خزينة الخزندار ينخفض من 18.620 دينار في 1710 إلى 10.150 دينار في 1730. فهي تندرج ضمن قبائل المخزن التي توفر للسلطة عددا هاما من الخيالة المزا رقة المأجورين وبالتالي فان مرتباتهم التي تؤخذ من مجموع الجباية والتي يساهمون بدورهم

في جمعها اذا ما طرحت من ما يؤديه عرش جلاص إلى الخزندار بالإضافة إلى ما يطرح كتنقيص فان هذا العرش لم يدفع فعليا إلا 2.500 دينار.

من هذه القبائل المخزنية نذكر أيظا أولاد عون الذين تمتعوا نظريـــا بانخفاض يقدر بحوالي 50%، ولكن فعليا قد تمتعوا بإعفاء جبائي شبه تام.

كما شهدت أيضا قبائل وطن تونس تراجعا لمبلغ جبايتها بنحو 35% اذ كانت هذه القبائل إلى جانب الباي حسين بن علي في محنة 1728.

ومن السكان الذين شملهم التخفيف الجبـــائي أيضـــا أهـــالي مدينـــة القيروان الذين ساندوا حسين بن علي منذ بداية حكمه ووقفوا إلى صفه فـــي محنة 1728 ورفضوا فتح أبواب مدينتهم إلى الثائر علي باشا.

وعموما فان القبائل الحسينية قد غنمت من مناصرة الباي حسين بـــن علي في حين تحملت القبائل الباشية نتائج عدم نصرتها للباي ووقوفها إلـــى صفّ الثائر علي باشا.

قام الباي المنتصر في أعقاب الثورة بتصفية حسابه مع القبائل التـــي لم تسانده والتي شكّلت الشقّ الباشي. وفي مقدمة هؤلاء نجد الوسلاتية (قبائل جبل وسلات) الذين أغرموا غرامة مالية باهضة تقدر بـــ 40.000 ريـــــال وأجبروا على مغادرة الجبل وعلى دفع المجبى كبقية القبائل الأخرى.

ونجد في نفس الوضعية قبائل ماجر وأولاد عيار الذين لـــم يخفـــوا ولاءهم لعلي باشا وناصروه إلى آخر لحظة، فحرموا من كلّ تنقيـــص مـــن معاليمهم الجبائية في حين أنّ في بداية العهد الحسيني قد بلغ الطـــرح 30% بالنسبة لأولاد عيار. أما قبائل ماجر فقد تضررت أكثر اذ ارتفعت جبايتـــها بنسبة 50% تقريبا.

كما أثقل كاهل قبائل الشمال الغربي كجندوبة وأولاد بوسالم اللذيـــن ارتفعت جبايتهم إزاء الخزندار بنسبة 40%، كذلك الأمر لتبرســـق ومنطقـــة

الأعراض التي ارتفعت جبايتها بنسبة 75% ومنطقة الجريد حيث تضـاعفت المقادير المدفوعة للخزندار بين 1710 و1730.

الفئة الثالثة هي القبائل أو الجهات التي لم تشهد تغيّرا على المستوى الجبائي ما بين 1710 و1730. من بين هذه القبائل نذكر منطقة الكـاف وإن اختلفت مواقف قبائلها من النزاع الحسيني- الباشي. ففي حين أثقـل كـاهل ورغة فقد انخفضت جباية ورتتان (60%)

تشبه وضعية منطقة ماطر إلى حدّ كبير منطقة الكاف فهي جزء من مطمور البلاد إلى جانب منطقة باجة وبالتالي يوفران للسلطة مداخيل أخـرى عينية في شكل صيفية ومشترى.

الخاتمة :

أهمية هاته الوثيقة في التاريخ من الناحية التاريخيـة تكمـن فـي استعمال الجباية كسلاح من طرف السلطة الحاكمة آما كوسيلة للـترهيب أو كوسيلة للترغيب: تمثل اذن الجباية سلاحا ذا حدّين وبالتـالي فـهي تحـدد نوعية العلاقة بين السلطة والمجتمع وتعتبر مؤشرا عنها.

* الوثيقة المصوّرة

لا يهمل المؤرّخ أي صنف من الوثائق بمـا فـي ذلـك الوثـائق المصوّرة (document iconographique) والوثائق الفنية بمختلف أنواعـها (نحت- رسم- موسيقى...) خاصّة في غياب الوثائق الكافيّة، بل قـد تمثـل الصورة قي بعض الأحيان مصدرا من الدرجة الأولى. ولنذكر بعض الأمثلة عن ذلك:

- توفّر الرسوم على جـدران الكـهوف للمؤرخيـن الكثـير مـن المعلومات عن الحياة في عصور ما قبل التاريخ (رسوم لاسـكو Lascaux ونيو Niaux بفرنسا- رسوم صحراء تاسلي بالجزائر ...)

- توفّر اللوحات الفسيفسائيّة معلومات قيّمة عن الحياة اليوميّة في العهد الرومانيّ في القرنين الأوّل والثانيّ (على سبيل المثال: لوحات سوسة أو لوحات بياتزا أرمرينا Piazza Armerina بصقليّة)

- يتعذّر على المؤرّخ، إن لم نقل يستحيل عليه، دراسة النهضة الأوربيّة في القرنين الخامس والسادس عشر ميلادي دون ادراج الرصيد الهائل من الأعمال الفنيّة ضمن قائمة مصادره. تعبّر لوحات الرسّامين عن أحداث تاريخيّة معيّنة أو عن عادات وتقاليد أو عن مظهر من مظاهر الحياة اليوميّة التي قد لا نجد لها ذكر في مصادر أخرى.

- في غياب وصف للمغرب الأقصى في منتصف القرن التاسع عشر تمثل لوحات الفنان الفرنسيّ دي لاكروا (Delacroix) مصدرا هاما للمؤرّخ، إذ كان ذلك الفنان شاهد عيان لما رسمه في لوحاته اعتمادا على رحلته إلى المغرب والجزائر سنة 1832.

فالفنّ من حيث ارتباطه بالإنسان وبكونه يتطوّر عبر الزمن فإنّه يندرج ضمن مجال اهتمامات المؤرّخ والدراسات التاريخيّة، فمن الضروريّ تدريس مادة تاريخ الفنّ (Histoire de l'art) لطلبة شعبة التاريخ بالتوازي مع المسائل التي تدرّس في المرحلتين الأولى والثانيّة من هذه الشعبة (على سبيل المثال: تدريس تاريخ الفنّ في العصور القديمة لطلبة التاريخ القديم، ونفس الشيء بالنسبة إلى الحقب التاريخيّة الأخرى)

وعن أهميّة الفنّ قال بعضهم : "إنّ بعض الأقطار لم تعرف إلا بفنّها، فبلد مثل هولندا برهن عن عبقريته برساميه لا بأدبائه".

« *Il est des pays qui ne se sont révélés que par leur art. Ce n'est pas par ses écrivains mais par ses peintres que la Hollande a manifesté son génie...* » (E. Mâle, *Histoire générale de l'art*, éd. Flammarion, 1950, I, p. 7).

كلّ ذلك يدفعنا إلى القول بضرورة إيلاء تاريخ الفن المكانة التي يستحقها في دراسة الطالب للتاريخ إذ لم يعد خفيا ما يحتله الإبداع الفني في تاريخ البشرية. فتاريخ الفنّ يثري كثيرا الدراسات التاريخية، وهو جزء لا يتجزأ منها. إن التغافل عن هذا الجانب يعتبر نقصا في تكوين الطالب بقسم التاريخ وثغرة يصعب سدّها. يكفي أن نذكّر بأهمية النحوت والرسوم الاغريقية في التعبير عن الميتولوجيا وانارة جوانب عديدة من معتقدات الاغريق وتاريخهم في العصور القديمة. ثم ان هذا الفنّ يدعم ما بلغنا عن العبقرية الهيلينستية بواسطة شعراء وفلاسفة اليونان.

هذا وقد طوّر تاريخ الفن طرق تحليله للأعمال الفنيّة اعتمادا على البنيوية وتحاليل فرويد (Freud) وغنم منهما كثيرا.

يستوجب تحليل الرسم من محلله الامعان في مكّوناته وضبطها، مع محاولة الاجابة عن التساؤلات التالية : ماذا يمثل الرسم؟ متى رسم ؟ كيف رسم؟ بأي هدف رسم؟...

يخضع تحليل الوثيقة المصوّرة إلى منهجيّة معيّنة ويشتمل عادة على أربعة عناصر: التقديم- الوصف- التأويل- النقد.

- التقديم: هو شبيه بما يقوم به الطالب عند تقديم النصّ التاريخيّ وذلك بالتعريف بصاحب العمل الفنيّ تعريفا موجزا يساعد على فهم وتحليل الوثيقة المصوّرة. كما يحدّد الطالب في هذا العنصر تاريخ انجاز الوثيقة والظروف التي حفّت بإنجازها.

- الوصف: هو استخراج مكوّنات اللوحة (الشخصيّات، الرموز، الكتابات، ...) ومحاولة تكوين مجموعات منها إن كانت اللوحة أو العمل الفني يسمح بذلك. المرغوب من الطالب وصف مشاهد اللوحة بكل دقة.

- التأويل: ما يمكن استنتاجه من محتوى اللوحة : هل تمثل اللوحة حدثا تاريخيّا معيّنا ؟ ما هو ذلك الحدث ؟ ما هي علاقة اللوحة بأحداث العصر الذي رسمت فيه ؟ ما هو موقف الرسّام من تلك الأحداث ؟...

- النقد: يمكن مقارنة المعلومات التي توفّرها اللوحة بما في المصادر الأخرى خاصّة المكتوبة منها – فيما تكمن قيمة اللوحة كوثيقة تاريخيّة ؟ هل تضيف لنا معلومات جديدة عما نعرفه من مصادر أخرى؟ ما هي مكانة هذا العمل ضمن الأعمال الفنية الأخرى للفنان؟...

المراجع :

- Arnaud (P), *le commentaire de documents en histoire ancienne*, éd. Belin, Paris 1993, pp. 231 - 236.

- *Les historiens et les sources iconographiques.* Table ronde du 27/11/1981, éd. CNRS, Institut de l'histoire moderne et contemporaine - Paris, 1981.

- Iconographie et histoire des mentalités, éd. CNRS, Paris, 1979.

- H. Zerner, l'art, in *Faire de l'histoire*, II, p. 245 - 263

أدوات عمل الطالب

يستوجب التعامل مع الوثائق زادا معرفيّا هاما في التاريخ، لذلك فهو من اختصاص المؤرّخ والباحث المتمرّس. أمّا طلبة شعبة التاريخ وخاصة المبتدئين منهم، فهم في حاجة إلى أدوات عمل سهلة الاستعمال إلاّ أنّها تختلف من فترة تاريخيّة إلى أخرى بحسب خصوصيّات كلّ واحدة منها. فما يحتاجه الطالب في التاريخ القديم يختلف تماما عمّا في حاجة إليه الطالب في

التاريخ الوسيط أو في التاريخ الحديث والمعاصر. لذا سنكتفي بذكر أهمّ المراجع التي لا غنى للطالب عنها موزّعة حسب الفترات. وهي عموما: المعاجم والموسوعات – التواريخ العامة – التآليف المختصة – الدوريات – الأطالس...

* المعاجم والموسوعات

للعصور القديمة

- Rachet (F), *Dictionnaire de la civilisation grecque*, Paris 1968.

- Frédouille (J.C), *Dictionnaire de la civilisation romaine*, Paris 1968.

- Devambez (P), Flaceliére (R)., *Dictionnaire de la civilisation grecque*, Paris 1966.

- Queyrel (A), *lexique d'histoire et de civilisation grecque*, Paris 1996.

- Deremberg, Saglio, Pottier: *Dictionnaire des Antiquités grecques et romaines*, Paris 1877 - 1891. (10 tomes en 5 volumes).

- Lavedan (P): *Dictionnaire illustré de la mythologie et des Antiquités grecques et romaines*, Paris 1931.

- Schmidt (J): *Dictionnaire de la mythologie grecque et romaine*, éd. Larousse, Paris 1995.

- *Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique*, Brepols, 1992.

- *Dictionnaire de la préhistoire*, A.L. Gourthan, P.U.F, 1988.

- *موسوعة تاريخ العالم*: 8 أجزاء، أصدرها وليام لانجر، أشـــرف على ترجمتها محمد مصطفى زيادة – عبد المنعم أبو بكر، مكتبة النهضـــة المصريّة، القاهرة 1959–1971.

- *موسوعة تاريخ أوربا العـــام*: جورج ليفـــة – رولان مونييـــه، منشورات عويدات، بيروت 1995، 3 أجزاء.

القـــرون الوسطى

- *موسوعة التاريخ الإسلاميّ والحضارة الإسلاميّة*: أحمد شـــلبي، مكتبة النهضة، القاهرة، 7 مجلدات.

- *Encyclopédie de l'Islam* : موسوعة ومرجع أساسيّ لتـــاريخ العالم العربيّ الإسلاميّ وحضارته. توجد في طبعتين: طبعة قديمة تمسح كلّ الحروف الأبجديّة وطبعة جديدة في عدة مجلدات تمسح الى حدّ اليوم كـــامل حرف S نقل الطبعة القديمة الى العربيّـــة محمـــد ثـــابت الفنـــدي، أحمـــد السنتناوي، ابراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس منذ أوائل الثلاثينات.

يستوجب استعمال هذه الموسوعة من الطالب معرفة بطريقة النقـــل التي اعتمدتها الموسوعة من العربيّة إلى الفرنسيّة بالحروف اللاتينيّة علـــى النحو التالي :

k	ك	ḍ	ض	d	د	'	أ
l	ل	ṭ	ط	dh	ذ	b	ب
m	م	ẓ	ظ	r	ر	t	ت
n	ن	ʿ	ع	z	ز	th	ث
h	هـ	gh	غ	s	س	dj	ج
w	و	f	ف	v		ḥ	ح
y	ي	ḳ	ق	sh	ش	kh	خ
				ṣ	ص		

- J. Favrier, *Dictionnaire de la France médiévale*, Paris 1993.

- *Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastique*, direction R. Aubert, Paris 1977.

- Vidal (J) - Ries (J), *Dictionnaire des religions:*, P.U.F, Paris 1984.

- Gay (V), *Glossaire archéologique du Moyen Age et de la Renaissance:*, Paris 1887 - 1928.

- Fédou (R), *Lexique historique du Moyen Age.*

- Le Goff (J), schmitt (J.C), *Dictionnaire raisonné de l'Occident médiéval,* éd. Fayard Paris 1999.

العهد الحديث والمعاصر

- *Le Larousse du XXe siècle* (6 vol.)

- *Dictionnaire de la pensée politique*, éd. Hatier, Paris 1989.

- *Encyclopédie économique*, éd. Douglas, Paris, 1984 (2 vol.)

- *Dictionnaire d'art et d'histoires militaires*; direction A. Corvisier, P.U.F, Paris 1988.

- *Lexique historique de la France d'Ancien Régime*, Paris 1978.

* المؤلفات العامّة :

العصور القديمة

- *Collection des Universités de France* : سلسلة باشراف جمعية قيوم بودي (C.U.F) تعنى بنشر المؤلفات الكلاسيكية مع الترجمة الى الفرنسية.

- *Collection des classiques Garnier* : تعنى بترجمة النصوص الاغريقية دون نشر النص الأصلي.

- *Loeb classical Library* : وهي سلسلة تعنى بنشر الترجمة الانقليزية لمؤلفات أقل شهرة من السلسلتين السابقتين.

- *Peuples et Civilisations* : سلسلة تمسح تاريخ عدّة شعوب من العصور القديمة الى الحرب العالميّة الثانيّة. صدرت عن منشورات (P.U.F) بفرنسا. 4 مجلدات تهمّ التاريخ القديم تحت اشراف A. Aymard.

- تـاريخ الحضـارات العـام (*Histoire générale des civilisations*) بإشراف موريس كروزيه، منشورات عويـدات، بـيروت 1986-1987 في 7 أجزاء:

ج 1: الشرق واليونان القديم

ج 2: روما وامبراطوريتها

- *Evolution de l'humanité* : سلسلة بإشـراف H. Berr، 30 مجلّدا عن التاريخ القديم وتاريخ الشرق القديم.

- *Cambridge Ancient History* : سلسـلة مـن 17 مجلّـدا (1923 - 1939).

- *Histoire Générale* : إشراف G. Glotz - تاريخ الكـون مـن العصور القديمة إلى نهاية القرون الوسطى.

4 مجلّدات عن التاريخ الإغريقي (1945 - 49)

6 مجلّدات عن التاريخ الروماني (1940 - 50)

- *Histoire de l'Humanité* مجموعة وضعت بإشراف منظمـة اليونسكو، نشر روبار لافون Robert Laffont، باريس 1967-1969 فـي 7 أجزاء (الجزء السابع مخصص للفهارس):

ج 1: ما قبل التاريخ

ج 2: العصور القديمة

القرون الوسطى- العصر الوسيط

- *Histoire de l'Europe au Moyen Age*

. t.I: Bemont (Ch), Monod (G), éd. 1924, Paris.

. t.II: Bemont (Ch), Doucet (R), éd. 1931, Paris.

- *Cambridge Medieval History*: J.B. Bury - 8 volumes.

- *Histoire Universelle*: direction Grousset (R), Léonard (G)

. t.II: de l'Islam à la Réforme, Coll. La Pléade, Paris, 1957.

- Pirenne (H): *Histoire de l'Europe des invasions au XVIe siècle*, Paris 1936.

- Génicot (L): *Les lignes de faîte du Moyen Age*, Paris, 3e éd. 1961.

- Djaît (H), Talbi (M), Douib (A)...: *Histoire de la Tunisie - le Moyen Age*, éd. S.T.D, Tunis.

Sauvaget (J): *Introduction à l'histoire de l'Orient musulman*, Paris 1923.

– جب (هاملتون) : *دراسات في حضارة الاسلام*، ترجمة إحسان عباس، محمد نجم، محمود زايد، بيروت 1964.

– حسن (إبراهيم) : *النظم الإسلاميّة*، القاهرة 1939.

– ماجد (عبد المنعم) : *مقدّمة لدراسة التاريخ الإسلامي*، القاهرة 1953.

– ماجد (عبد المنعم) : *تاريخ الحضارة الإسلاميّة في القرون الوسطى*، القاهرة 1963.

العهد الحديث والمعاصر

- *Peuples et Civilisations*: t. XIII - t. XXI (P.U.F).

- *Histoire générale des civilisations*: t.V-VI-VII (P.U.F).

- *The New Cambridge Modern History*: t.VIII - t.XII.

- Lesourd (J), Gérard (C), *Histoire économique XIX et XXe siècles*, A. Colin, Paris 1963 (I - II).

- *Histoire des relations internationales*: direction Renouvin, t.IV-VIII.

- Duroselle (J), *Histoire diplomatique de 1919 à nos jours*, 4e éd. Dalloz, Paris 1963

– تاريخ الحضارات العام :

ج 4 : ق XVII- XVI — ج 5 : ق XVIII

ج 6 : ق XIX — ج 7 : الفترة المعاصرة

* الدوريّات:

قد تكون في التاريخ العام أو مختصّة بحقبة من الحقب التاريخيّة. نذكر البعض منها:

التاريخ القديم:

– *Africa*: تصدر بتونس عن المعهد الوطني للتراث تعنى بالدراسات والبحوث في ما قبل التاريخ القديم والعهد الاسلامي.

– *Reppal*: تصدر بتونس عن المعهد الوطني للتراث وتعنى بالدراسات الفنيقية البونية والآثار اللوبية.

- *Revue des études africaines - Revue Africaine*

- *Bulletin trimestriel des Antiquités Africaines* تصدر عن C.N.R.S بباريس

- *Studia Phoenicia*: تصدر منذ 1983

- *Journal Asiatique*: دوريّة ثلاثية تصـــــدر منــذ 1822 عــن الجمعيّة الآسيوية بالتعاون مع CNRS باريس

- *Karthago*: دوريّة مختصّة بالآثار

- *Cahiers de Byrsa* (1951 - 1961)

التاريخ الوسيط

- *Revue historique*: صدرت في 1876 بباريس، دوريّة ثلاثيـــة أسّسها G. Monod.

- Moyen Age: تصدر منذ 1888 عن مجموعة من المؤرخيـــن واللغويين الفرنسيين والبلجيكيين.

- *Revue des Etudes Islamiques (R.E.I)* : تصدر منــذ 1927 كلّ ثلاثة أشهر تحت اشراف المستشرق لويس ما سنيون (L. Massignon)

- *Annales Islamologiques*: تصدر عن المعهد الفرنسي للآثـــار الشرقية بالقاهرة.

- *Annales (Economies, Sociétés, Civilisations)*: صـــدرت في 1929 تحت عنوان:

ثـمّ بـالعنوان "Annales d'histoire économique et sociale"

الحالي منذ أوائل الخمسينات لتصبـح منـذ 1996 تحمـل عنـوان :

Annales - Histoire, sciences sociales.

- *Arabica* : تصدر منذ 1956 عددا واحدا كلّ أربعة أشهر.

- *Studia Islamica* : تصدر منذ 1953، عددين في السنة.

التاريخ الحديث والمعاصر

- *Revue d'Histoire économique et sociale*: صـدرت فـي 1908 وهي دورية ثلاثية تعنى بتاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

- *Cahiers d'Histoire* : تصدر منذ 1956 عن ثلاث كليات آداب فرنسية.

- *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée* *(R.O.M.M)*: تصدر منذ 1965 وتحمل اليوم عنوان:

"Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée"

- *Maghreb / Machrek* : صدرت في 1964 بعنوان *Maghreb* ثم أصبحت منذ 1973 بعنوانها الحالي.

- *Les Cahiers de Tunisie* (الكرّاسات التونسيّة): تصـدر منـذ 1953 عن كليّة العلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة بتونس، عددين في السنة.

- *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb* : تصدر منذ 1966 عن كليّة الآداب بالجزائر.

- *Revue d'histoire de la seconde Guerre mondiale*:صدرت بباريس ما بين 1951-1982. ثم بداية من 1983 تحت عنوان :

Guerres mondiales et conflits contemporains.

- *Vingtième siècle* : دوريّة حديثة تهتم بقضايا القرن العشرين.

- *Revue d'histoire moderne et contemporaine* (R.H.M.C): دوريّة مختصّة في التاريخ الحديث والمعاصر كما يدلّ على ذلك عنوانـــها. صدرت في 1899 بدون انتظام، دوريّة ثلاثية اختفت في 1914، ثم رجعت للصدور في 1954.

- *المؤرّخ العربيّ*: تصدر عن الأمانة العامّة لاتحاد المؤرّخين العرب ببغداد مجلة فصلية تاريخية محكّمة تعنى بشؤون التراث والتاريخ العربي والعالمي.

- *المجلّة التاريخيّة المغربيّة*: تصدر عن مؤسسة التميمي للبحث العلميّ والمعلومات منذ 1974، أربعة أعداد في السنة. كما تصدر نفس المؤسسة منذ 1990 مجلة ثانيّة بعنوان "المجلة التاريخيّة العربيّة للدراسات العثمانية"

- *دراسات تاريخيّة*: تصدر منذ 1981 عن جامعة دمشق.

- *مجلة التاريخ*: تصدر منذ 1974 عن المركز الوطني للدراسات التاريخيّة بالجزائر.

- *مجلة الدراسات التاريخية*: تصدر منذ 1986عن معهد التاريخ بالجزائر.

- *مجلة تاريخ المغرب*: تصدر بالرباط منذ 1981.

* الأطالس (Atlas)

التاريخ القديم

- *Atlas historique* : الجزء الأول مخصّص للفترة القديمة وضعه Drioton - Delaporte، باريس 1955.

- *Atlas archéologique universel* : وضعه Whitehouse.

- *Atlas de l'Antiquité classique* : وضعه Van Der Heyden -، Lavedan -، باريس 1961.

- *Atlas classique* : وضعه Gourou.

- *Atlas historique et géographique* : وضعه - Vidal Lablache، باريس 1960 (طبعة أخيرة).

- *Atlas stratégique* : أطلس جغراسياسي.

- *Atlas historique* : باريس 1937، ج 3.

- *Atlas général Larousse* : باريس 1973.

إلى كلّ هذه المراجع التي تمثّل أدوات عمل ضروريّة للطالب تضاف التآليف المختصّة والتأليفية عن المسائل المقرّرة خلال السنة الجامعيّة والتي يجب أن يبحث عنها الطالب في جذاذات المكتبة إن لم يقدمها له الأستاذ المكلّف بتدريس المسألة. وهي كتب تبحث في قضايا معيّنة قد تتعلّق بالمؤسسات السياسية أو العسكرية أو بالأنشطة الاقتصادية أو المجتمع أو الفنون أو العمارة...

* الأدلة (Guides)

التاريخ القديم

- Petit (P), *Guide de l'étudiant en histoire ancienne*, PUF, 1965.

- Arnaud (P), *Le commentaire de documents en histoire ancienne*, Belin, Paris 1993

التاريخ الوسيط

- Pacaut (M), *Guide de l'etudiant en histoire médiévale*, P.UF, 1968.

- Durand (J.D) *Guide du chercheur en histoire religieuse*, P.U.L, Lyon 1993.

التاريخ الحديث و المعاصر

- Guiral (P), *Guide de l'étudiant* en *histoire moderne et contemporaine*, P.U.F, 1971.

- Devéze (M), textes et documents d'histoire *moderne et conseils pratiques aux étudiants.*

- Folle (C), *textes d'histoire contemporaine.*

- *La méthodologie de l'histoire de l'Afrique contemporaine*, O.N.U., 1984.

أسس العمل المنظم

يقبل الطالب على التعليم العالي وقد تعود على طريقة عمـــل فـــي التعليم الثانوي تختلف تماما عما هو مطالب به في الجامعة. فهو مدعو فـــي هذه المرحلة الجامعية إلى الإعتماد على النفس اكثر مـــن الإعتمـاد علـى الأستاذ الذي تكمن وظيفته الأساسية، إلى جـانب التدريـس، فـي اكسـاب الطالب طرق العمل المنظم من خلال الدروس العامة وحصـــص الأشـغال التطبيقية. ومن دعائم هذه الطريقة نذكر:

* ضبط البيبليوغرافيا

انطلاقا من مبدإ التعويل على النفس فإن من أوكد حاجيات الطـــالب الجديد تعلم طريقة ضبط قائمة المراجع أو البيبليوغرافيـــا. يبـدأ الطـالب بالإطلاع على جذاذات مكتبة الكلية أو غيرها وهي نوعان : واحدة مرتبـــة حسب المؤلفين وأخرى حسب المواد وكلاهما مرتب هجائيا.

فلنأخذ مثالا تطبيقيا : اعداد عرض عن الأوضاع الإقتصادية بالبلاد التونسية في 1881. يستهل الطـــالب عملـه بـالإطلاع علـى الجـذاذات المخصصة لمادة تونس التي بدورها تتضمن أقساما عديدة (مجتمع، سياسـة، ثقافة، تاريخ، اقتصاد،....) فيسـجل كـل العنـاوين المتصلـة بالإقتصـاد التونسي. وفي مرحلة أولى يبدأ الطالب بقراءة المؤلفات العامة عـن البـلاد التونسية قبيل الإحتلال الفرنسي، ثم في مرحلة ثانيـة قـراءة المؤلفـات أو المقالات المتعلقة بالأنشطة الإقتصادية. فالصنف الأول من التآليف يعطيـــه فكرة شاملة عن البلاد التونسية في أواخر القرن XIX، والثاني يحـدد لـه محاور اهتمام العرض ويوضح له خصوصيات الإقتصـــاد التونسـي فـي 1881.

هذا وتحدّد نوعية الموضوع اختيـــار الطـــالب لمراجعـــة بحســـب متطلبات العمل من قراءة مؤلفات عامة أو مؤلفات مختصة أو أطروحات أو مقالات في بعض الدوريات... ومهما يكن من أمر فانّ كل بيليوغرافيا قابلـة للنقد، فهي دائما منتقاة وناقصة مهما حاول الطالب استكمالها. فطالب اليـــوم تتوفر لديه في الكليات قوائم على الحاسوب والتي تغنيه عن اضاعة الوقـــت في البحث في الجذاذات يدويا. فبمجرد تقديم موضوع العرض أو اسم العلـــم اللآلة يحصل الطالب على قائمة للمؤلفات والمقالات المتعلقة بموضوعه وما عليه الا الانتقاء منها ما يخدم محاور الاهتمام.

على أنّ عملية ضبط قائمة المراجع أو البيبلوغرافيا تخضـــع الـــى تمشي معين يستند الى قواعد أساسية منها:

– الانتقال من العام الى الخاص والتفصيل وعدم الاســـتغناء عـــن المعاجم والموسوعات التي كثيرا ما توفر معطيات تأليفية.

– تفضيل الدراسات الحديثة عن غيرها دون اهمال ما هو متمـــيّز منها بالطرافة والقدم.

– تفضيل دراسات المختصين.

– ضبط كلّ مرجع بدقة (المؤلف– العنوان– تاريخ الطبع– الناشر– مكان النشر عدد الصفحات...) فذكر الاحالات يخضع لمنهجية معينة تختلف بحسب النوعية (كتاب أو مقال):

فبالنسبة لكتاب، نذكر على التوالي: عنوان الكتاب، الناشـــر، مكـــان النشر، مع تسطير عنوان الكتاب.

أما بالنسبة لمقال فنذكر على التوالى: اسم الكاتب "عنـــوان المقـــال" اسم الدورية، عام الصدور، عدد الدورية، صفحات المقال. مع تسطير اســـم الدورية ووضع عنوان المقال بين ظفرين.

* القراءات الشخصيّة

بعد ضبط قائمة المراجع الأساسيّة لمختلف المسائل ينتقي منها الطالب ما سيقرأه، إذ ليس بإمكانه عمليّا قراءة كلّ ما جاء في قوائم البيبليوغرافيا التي يقدّمها الأساتذة. لذا ننصحه بـ:

– القراءة بترو وتركيز وأن لا تكون من نوع القراءات "الخاطفة" (en diagonale).

– قراءة مصحوبة بتقييدات واضحة على جذاذات تستغل فيما بعد عند المراجعة في آخر السنة.

– اختيار أحدث دراسة عن كلّ مسألة لتوفير عناء قراءة كلّ ما كتب عنها من قبل شريطة أن تكون هذه الدراسة من قبل أخصائيّ.

* الدروس العامّة

لكلّ طالب طريقته الخاصّة في أخذ التقييدات أو الملاحظات أثناء الدروس العامّة. لكن مهما اختلفت هذه الطرق فالطالب مدعو إلى:

– التركيز أثناء الدرس لتتبّع تمشي الأستاذ وتسلسل الأفكار.

– تسجيل التقييدات بوضوح تام وإيجاز. فليس بامكان الطالب تسجيل كل ما يقوله الأستاذ، لذا لا يمكن التعويل على الذاكرة، ولكلّ طالب طريقته في التقييد باستعمال جملة من المختصرات التي لا يفهمها الا هو بنفسه والتي تمكّنه من تقييد كلّ ما يبدو له هاما في الدرس العام الذي عادة ما يكون في شكل محاضرة.

– تكوين ملف عن كلّ مسألة من المسائل السنويّة يضمّ تقييدات الدروس العامّة والأشغال التطبيقيّة والقراءات الشخصيّة إذ لا يمكن الفصل

بين هذه العناصر الثلاثة كي تحصل للطالب نظرة تأليفيّة عن كلّ جوانب المسألة المدروسة.

يتمثل الاشكال الرئيسي في كيفية توفيق الطالب، خاصة الجديد بشعبة التاريخ، بين عمليتي التدوين لما هو هام من الدرس من ناحية والفهم من ناحية أخرى. وفي جلّ الحالات يحاول الطالب تسجيل كلّ ما يقوله الأستاذ ليفهم ذلك من بعد.

* يوم الامتحان

نتقدم ببعض التوجيهات العملية لطالب قسم التاريخ يوم الامتحان للتوفيق في تحرير مقالته أو شرح الوثيقة المقترحة (نص – خريطة – جدول احصائي – جدول كرونولوجي...).

– الاستعداد للامتحان:

– الامتحان تقييم لمجهودات الطالب ولما حوته ورقته يوم الاختبار، لذا وجب على الممتحن الاستعداد للامتحان علميّا ونفسانيّا. وهذا الجانب الثاني كثيرا ما يهمله الطالب في حين أنّه لا يقلّ أهمية عن الجانب الأول. فقلق الامتحان (stress) أمر متعارف في الأوساط الطلابيّة وتختلف مواقف الطلبة منه بإختلاف شخصياتهم وطبائعهم. ففي بعض الحالات يشكّل ذلك التوتر عائقا كبيرا. لذا وجب على من هم في هذه الوضعية اعدادا نفسانيا ملائما (تمارين رياضية على سبيل المثال).

– الاستعداد العلميّ يكون بالعمل المنتظم أثناء السنة الجامعية باثراء الدروس العامة التي تبقى دائما غير كافية مهما قدم الأستاذ من معلومات فعلى الطالب اكمالها بمطالعاته الشخصيّة.

- حسن توزيع التوقيت:

لا يتمكن كثير من الطلبة من انهاء عملهم في آخر التوقيت المخصص للامتحان، أو يهملون الخاتمة ويحررونها بسرعة كبيرة. ويرجع ذلك إلى عدم حسن توزيع التوقيت لذا ننصحهم:

- تخصيص جزء من التوقيت لإعادة قراءة التحرير في نهاية الحصة (حوالي 15 أو 20 دقيقة)

- توزيع التوقيت المحدد بصفة منطقية بين مختلف مراحل الامتحان: قراءة الموضوع - استعراض المعلومات - ضبط التخطيط المفصل - التحرير - إعادة القراءة... فعلى سبيل يمكن توزيع الأربع ساعات المخصصة لمقالة تاريخية على النحو التالي :

- قراءة الموضوع واستحضار المعلومات (20د)
- تحرير المقدمة على المسودة (20د)
- ضبط التخطيط المفصل للجوهر (90د)
- تحرير الخاتمة على المسودة (20د)
- نقل المقدمة على ورقة الامتحان (5د)
- تحرير الجوهر على ورقة الامتحان (60د)
- نقل الخاتمة على ورقة الامتحان (5د)
- المراجعة والقراءة الأخيرة (20د)

- تجنب إضاعة الوقت مهما كان مصدره (التدخين على سبيل المثال)

– قراءة النص المقترح للشرح أو موضوع المقالة المرار العديدة بكل تأنّ مع تسطير الكلمات الهامة أو الغامضة.

– ضبط تخطيط مفصل وواضح وكامل للجوهر، لذا يجب أن تكون المسودة قابلة للزيادة والنقصان وسهلة القراءة مع وضوح العناوين الكبرى والعناوين الفرعية والمعلومات المتصلة بكل عنوان فرعي.

– تحرير كامل للمقدمة والخاتمة على المسودة بعد ضبط التخطيط المفصل للجوهر.

– وفي مرحلة ثانية يقع تحرير الجوهر مع ضرورة توفر ثلاث خصال: الوضوح والدقة والسهولة.

– توخي السهولة في التعبير بتجنب القوالب الفارغة والجمل المعقدة والطويلة.

– اعتماد الوضوح والدقة في التعاريف واللغة المستعملة وكذلك أيضا في الكتابة أي الخطّ إذ كثيرا ما يهمل الطالب هذا الجانب الذي لا يقلّ أهمية عن الجوانب الأخرى والذي قد يتسبّب أحيانا في فشل العمل إذا ما كان الخط غير قابل للقراءة (يجب التفكير في عناء المصحح ونفاذ صبره في بعض الحالات). لذا على الطالب بذل الجهد الكافي لتقديم عمل يقرأ بسهولة ومهيكل في شكل فقرات واضحة يفصل بينها فراغ وأخيرا خال من الأخطاء النحوية والصرفية واللّغوية وذلك باستعمال الجمل القصيرة والبسيطة التي تؤدي الفكرة مباشرة.

المراجـــع :

– محمد أحمد حسين، *الوثائق التاريخيّةحاليًا*، مطبعة جامعة القـاهرة 1954.

– حسن عثمان، *منهج البحث التاريخي*، دار المعـــارف، القــاهرة 1986.

– رجائي ريان، مدخل لدارسة التاريخ، دار أبـــن رشـد، عمـــان 1986.

– فرانز روزنتال، مناهج العلماء المسلمين فـــي البحـث العلمـــي، ترجمة أنيس فريحة، ط. 4، دار الثقافة، بيروت 1983.

– عزيز العظمة، *الكتابة التاريخيّة والمعرفة التاريخيّة*، دار الطليعـة للطباعة والنشر، بيروت 1983.

– فؤاد محمد شبل، *منهاج توينبي التاريخيّ*، دار الكتاب العربـــي، القاهرة 1968.

– عبد العزيز سالم، *مناهج البحث في التاريخ الإسلاميّ*، مؤسسّـــة شباب الجامعة، القاهرة، د.ت.

- Marrou (H.I), *De la connaissance historique*, Paris, éd. du Seuil, 1959.

- Veyne (P), *Comment on écrit l'histoire* Paris, éd. du Seuil, 1971.

- Nouschi (A), *Initiation aux sciences historiques*, Paris Nathan, 1993.

- Samaran (ch), *L'histoire et ses méthodes*, Paris, Gallimard 1961.

- Lakatos (I), *Histoire et méthodologie des sciences*, trad. Cathérine Malamoud, P.U.F 1994.

- Le Goff (J), Nora (P), *Faire de l'histoire*, éd. Gallimard, Paris 1974 (3 tomes).

- Arnould (M,A), *Histoire et méthode*, Paris 1981.

IV. كيــف كتــب التـــاريـــخ؟

" فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرنـــاه إنّمـــا
أدّينا ذلك على نحو ما أدّي الينا"

(الطبري)

إنّ التاريخ من حيث هو سجلّ للعصور الغـــــابرة وذاكـــرة الفـــرد والجماعات، فقد سعى الإنسان منذ أقدم الأزمنة إلى تناقل الأخبار شفويّا فـــي مرحلة أولى من جيل إلى آخر ثمّ في شكل كتابات في مرحلة ثانية.

كما كان لكلّ أمة طريقتها في التـــاريخ والتقويـــم فـــهناك التقويـــم السرياني والميلادي والهجري... وقد أ رّخ الاغريق القدماء انطلاقـــا مـــن الألعاب الأولمبيّة لسنة 776 ق.م. وأ رّخ العرب القدامى بالأحداث الجســـام والأيام المشهورة (أيام العرب هي المعارك والحروب التـــي وقعـــت بيـــن القبائل العربية في الجاهلية كحرب البسوس وحـــروب الأوس والخـــزرج) وعند ظهور الاسلام دعت الحاجة الى الاهتمام بالنجوم والقمرلتحديد مواقيت الصلاة والحجّ والصوم والعيدين.

العصـــور القديمـــة

ظهرت الكتابة التاريخية على ما يبدو لدى الشعوب الشرقية القديمة. ففي بلاد الرافدين نجد العديد من النصوص كلوحات سومر (Tablettes de Sumer) لكنّها لا تشكّل عملا تاريخيّا متكاملا.

ولعلّ من أقدم الأعمال التاريخيّة المكتوبة ما عثر عليه في الصين من كتابات ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد عن بعض أفراد الأسر الحاكمة ومآثرهم. فمن أشهر المؤرّخين الصينيّين القدامى نجد Sima Qian الذي عاش ما بين 145-86 ق.م وهو مؤرّخ بلاط الإمبراطور أودي (Wudi)، وقد ألّف كتابا جمع فيه أهمّ الأحداث السياسيّة التي شهدتها الصين إلى حدود سنة 87 ق.م.

أمّا في الغرب الأوربّي فقد ظهرت الكتابة التاريخيّة في بداية الأمر عند الإغريق ثمّ عند الرّومان.

* عند الإغريق:

لقد كانت أولى الآثار المكتوبة التي تهتمّ بالتاريخ في شكل ملاحم أسطوريّة من أشهرها ملحمة الالياذة والأوديسة المنسوبة إلى الشاعر هومريوس (Homère) والتي تروي إحدى حلقات حرب طروادة وعودة أوليس إلى وطنه عند نهاية الحرب ووصف مغامراته. صوّرت هذه الملاحم رغم طابعها الأسطوري قدرا كبيرا من المعتقدات الدّينية عند الإغريق القدامى وأبرزت مكانة الأبطال لديهم باعتبارهم بمثابة الآلهة. ومن هذا الصنف أيضا أعمال الشاعر هزيود (Hésiode) في النصف الثاني من القرن الثامن ق.م. والمتأثّر بأسلوب سابقه هومريوس وأشعاره خاصّة في كتابه "الأشغال والأيّام" (*Les travaux et les jours*) المشتمل على مجموعة من القصص الأسطوريّة حول أوضاع الفلاّحين في العهد الإغريقي القديم. ويرى هزيود أنّ البشريّة مرّت بخمسة عصور هي:

- العصر الذّهبيّ: أيّام حكم الإلاه كرونوس (Cronos) الذّي يقابله عند الرّومان ساتورن (Saturne). وقد ساد الوفاق في هذا العصر بين الناس والآلهة فعمّ الرّخاء على جميع المستويات.

- العصر الفضّي: أيّام حكم الإلاه زيوس (Zeus) وهو أحد أبنـــاء كرونوس الذي لقي حتفه على يدّ زيوس، وفيه توترت العلاقات بين النـــاس وأهملوا شؤون الآلهة.

- العصر البرنزيّ: وهو عهد توحّش وهمجيّة.

- العصر البطوليّ: حافل بالشّجعان وعظماء الرّجال والابطال.

- العصر الحديديّ: وهو عصر الشّاعر هزيود نفسه ويتّسم أساســا بالأنانيّة والفرديّة وتفوق وازع الشرّ الذي يتمثّــل فــي معارضــة الآلهــة وعصيانها.

وفي مرحلة ثانية تطوّرت الكتابة التاريخيّة لتتّخذ شكل سرد الوقـائع (chroniques) مع محاولة التّمييز بين ما هو أسطوريّ وخرافيّ ومــا هــو واقعيّ وحقائق تاريخيّة. تعتبر الكتابة التاريخية عند الاغريق القدامى امتـدادا لحركة التدوين التاريخي التى ظهرت من قبل في بلاد الرافديـــن ومصـــر. ويمثّل هذا التيّار كلّ من:

- هيكتيوس أصيل ميلي (Hécaté de Milet): ولد حوالــــي 550 ق.م بمدينة ميلي بآسيا الصغرى على ضفاف بحــر ايجــه واحــدى كبــار المراكز الثقافية في العالم الاغريقي آنذاك، وقد عرفت خاصـــة بمدرســتها الفلسفيّة. كتب هيكتيوس "تاريخ الملوك القدامى".

- هيلانيكوس أصيل ميتيلان (Hellanicos de Mytilène) : ولــد حوالي 479 ق.م. كتب "تاريخ الأتيك" (Attique) اعتماد على قوائم كهنـــة الآلهة هيرا (Héra) بمعبد مدينة أرغوس (Argos) وهو تاريخ مدينة أثينـــا ومنطقتها.

- أما أولى الأعمال التاريخية المتكاملـــة فــهي كتابــات المــؤرخ هيرودوت (Hérodote) الذي ولد حوالي 484 ق.م. وتوفّي 425. وقد لقــب

"بأب التاريخ" من طرف الكاتب والخطيب الروماني شيشـــرون (Cicéron). وقد كتب هيرودوت تاريخ الحروب الميدية" (Guerres médiques) التـــي دارت بين الإغريق والفرس خلال النصف الأول من القرن الخـــامس ق.م. وانتهت بصلح كلياس (Callias) وهزيمة الفرس الذين اعـــترفوا باســـتقلال المدن الاغريقية الواقعة على بحر إيجه وبهيمنة أثينا علـــى ذلـــك البحـــر. اتسمت مواقف هيرودوت خاصّة بالإحترازِ مـــن الروايـــات ذات الطـــابع الأسطوريّ، كما كان يقوم بالعديد من الأسفار والرّحلات لانتقاء معلوماتـــه، وحاول أن يبيّن في كتاباته أهمية الوسط الجغرافيّ فـــي مجـــرى الأحـــداث التاريخيّة. وقدم لنا هيرودوت معلومات قيّمة عن الشعوب التي ذكرها فـــي تاريخه. فالتاريخ لدى هيرودوت هدفه أن "يقف حائلا دون أن تندثر الأعمال التي قام بها الناس خلال الزمن".

– توسيديداس (Thucydide): ولد حوالي 465 ق.م. وتوفـــي 404 في عائلة ثرية، ويعتبر من أعظم المؤرخين الإغريق وقد جمع بين الكتابـــة التاريخيّة والسياسيّة والحرب. كتب "تاريخ حرب البيلوبوناز" (*Histoire de la guerre du Péloponnèse*) بين اســـبارطة وأثينـــا (431–404 ق.م) فجمع توسيديدا س الروايات ونقدها وعرض الأحداث في تسلسلها الزمنـــيّ محاولا البحث عن الأسباب وفهم الوقائع وتعاقبها المنطقيّ، وهو مـــا يمثـــل بداية التوجه النقديّ في كتابة التاريخ برفض الأساطير وكلّ ما هـــو غـــير عقلانيّ. فمع توسيدأس بدأت تتحدّد ملامح التأريخانيّة الكلاسيكيّة التي كـــان لها التأثير الكبير على التأريخانيّة الغربيّة فالتاريخ في نظر توسيديداس هـــو "العلم الدقيق بحوداث الماضي قد يفيد في أنّه من المحتمل أن يحـــدث فـــي المستقبل شيء من قبيل ما حدث في الماضي" فهو بالتالي مجـــال للاعتبـــار والعظة.

– كزينوفون (Xénophon): ولد حوالي 430 ق.م. وتوفـــي 355. وهو من تلاميذ الفيلسوف سقراط. حاول مواصلة عمل توســـيدأس بإتمــام تاريخ حرب البيلوبوناز في كتابـــه "*Les Helléniques*"، وكـــان منحـــازا لاسبارطة ضد أثينا. وله تآليف عديدة أخــرى عــن السياســة والإقتصـــاد والتربية...

– بوليبيوس (Polybe): ولد حوالي 202 ق.م. وتوفي 120. قضى فترة طويلة تقارب 15 سنة بروما كأسير فأعجب بالمؤسّســـات الرومانيّــة وبانتصارات روما في فتوحاتها التوسعيّة وحـــاول تفســير ذلــك بأســباب وعوامل مختلفة فكرّس بذلك القطيعة النهائيّة مع التفســـيرات الميتولوجيّــة للأحداث التاريخيّة. ويعدّ بوليبيوس من آخر مشاهير المؤرخيـــن الاغريــق رغم أن أجزاء عديدة من تاريخه قد ضاعت، فقد وصلنـــا 15 جــزءا مــن مجموع 40.

* عند الرومان

مثّل بوليبيوس في مرحلة أولى التحول من المدرسة الاغريقيّة إلـــى المدرسة الرومانيّة دون حصول قطيعة بين المدرستين خاصة على مســـتوى الشكل إذ تواصلت كتابة التاريخ في أوائل العهد الرومانيّ باللغة الإغريقيــة، فلم يحصل التغيّر إلا على مستوى المضمون الذي أصبح محــــوره تـــاريخ العالم القديم مع التركيز على التوسع الرومانيّ ومكانة روما فيه.

وبالإضافة إلى بوليبيوس نجد عدة مؤرخين آخرين لمثال:

– ديودروس الصقلي (Diodore de Sicile): وهو مؤرخ اغريقـــيّ من صقلية عاش في القرن الأول ق.م. وصاحب تــــاريخ كونـــيّ بعنـــوان "المكتبة التاريخيّة" (*Bibliothèque historique*) في عدة أجزاء لم يصلنـــا منها إلا أربعة جمع فيها ما كتبه سابقوه بدون أي إضافة تذكر.

- ديونيزوس أصيل هليكرناس (Denys d'Halicarnasse): من القرن الأول قبل الميلاد، عاش في روما. فهو أول مؤرخ اغريقيّ يكتب تاريخا رومانيّا بحتا. فقد كتب تاريخ روما من النشأة الى قيام الحروب البونيقيّة، كما كتب تآليف في الخطابة والنقد، وكان يرى في الرومان ورثة الاغريق وأنهم مؤهلون أكثر من غيرهم لحكم الشعوب الأخرى.

- بلوتارخوس (Plutarque): مؤرخ اغريقيّ عاش ما بين 120-46 ق.م، أقام مدة طويلة بروما، ثمّ رجع إلى مسقط رأسه أثينا حيث شغل عدّة مناصب هامة. كان له انتاج غزير يطغى عليه الطابع الأدبيّ والوعظيّ في مجالات مختلفة (الفلسفة - الدين - الأخلاق - السياسة - التربية - الأدب - التاريخ...) يستغلها المؤرخون خاصة لمؤلفه الشهير (*Vies paralleles*) الذي تعرض فيه لمشاهير الاغريق والرومان بالتوازي.

- أبيانوس الاسكندرانيّ (Appien d'Alexandrie): مؤرخ اغريقيّ من القرن الثاني ميلادي، نقل كتابه عن مؤلفات اغريقية لم تصلنا في "تاريخ روما" (*Histoire romaine*) المشتمل على 24 مجلدا.

وفي مرحلة ثانية برز عدد من المؤرخين اللاتينيّن أصلا ولغة إذ يكتبون باللغة اللاتنيّة تاريخا رومانيّا وبالتالي فقد حصلت في هذه المرحلة القطيعة بين المدرستين الاغريقيّة والرومانيّة. اتسمت كتابات هؤلاء المؤرخين بالطابع الواقعيّ والوطنيّ إلى حدّ الشوفينيّة أحيانا بالمغالاة في تمجيد تاريخ روما وتوسعاتها. وتمثل كتب الحوليات الصنف الأول من الكتابة التاريخيّة الرومانيّة التي سعت إثر الحروب ضد قرطاج إلى تبرير التوسّع الرومانيّ.

ومن أشهر المؤرخين اللاتنيّين نذكر:

- يوليوس قيصر (Jules César) : رجل السياسية والقائد الروماني (101-44 ق.م) وكذلك الخطيب البارع والمهتم بتاريخ روما من خلال

تأليفه عن الحرب الغال والحرب الأهليّة المتميزّة بدقـــة الوصــف واللغــة السلسلة الشيّقة.

– تراقيوس بومبيوس (Trogue Pompeé) مؤرخ لاتيني من بــلاد الغال عاش في القرن الأول للميلاد. وله تأليف في تاريخ الكـــون فـــي 44 مجلدا، لم يصلنا الا مختصره الذي قام به المؤرخ يوستينوس (Justin) فـــي القرن الثاني للميلاد.

– سوتينوس (Suétone) : عاش ما بين 70–140م وعني خاصـــة بتراجم القياصرة والمشاهير الرومان التي تمثّل مصدرا هاما لتاريخ رومـــا وامبراطوريتها.

– كورنيليوس نيبوس (Cornelius Nepos) مؤرخ لاتيني عاش مــا بين 99–24 ق.م. عني أيضا بتراجم المشاهير.

– كاتون (Caton): عاش ما بين 235–150 ق.م. فهو رجل سياسة ومؤرخ عرف بعدائه لقرطاج وبمناداته بتهديمها لتفرض روما هيمنتها علـى الحوض الغربيّ للبحر الأبيض المتوسط. ألّف عدّة كتب قـــد ضـــاع جلّـــها باستثناء كتابه عن الفلاحة الذي وصلنا كاملا.

– سالسيتوس (Salluste): عاش ما بين 86–35 ق.م. كان صديقـــا للامبراطور قيصر فصحبه في حملته على أفريكا وأسندت له امارة نوميديـا له كتاب هام "حرب يوغرطا"، ذلك الملك النوميدي الـــذي قـــاوم الرومـــان حوالي سبع سنوات (111–105 ق.م.).

– تيتيوس ليفيوس (Tite-Live): وهو أعظم مؤرخ لاتينـــي علـــى الإطلاق وبدون منازع. ولد حوالي 60 ق.م. بمدينة بادو الإيطالية وتوفـــي 17م. قضى معظم حياته بروما فكتب تاريخها في 42 جزء ضـــاع العديـــد منها. أبدى تيتيوس ليفيوس في تاريخه تعاطفا مع الجمهوريين ونزعة وطنيّة

واضحة. فهو يعتبر من أهم المصادر حول تاريخ روما رغم مبالغة المؤرخ أحيانا في تمجيد روما وتبرير ما أصاب امبراطوريتها من اضطرابات في القرن الأوّل ق.م.

– تاسيتيوس (Tacite): يعتبر من أهم المؤرخين الذين جاؤوا بعد تيت ليف. عاش ما بين 55–120م. كان في آن واحد خطيبا لامعا وموظفا ساميا تحت حكم الانطونيين (Antonins) وكاتبا مؤلّفا لكتابين هامين هما: "التواريخ" (*Histoires*) عن تاريخ الامبراطوريّة الرومانيّة من 69 إلى 96 م، و"الحوليات" (*Annales*) من 14 إلى 68 م.

– أميانوس مركيليانوس (Ammien Marcellin) مورخ لاتيني من أصل اغريقي، عاش حوالي 340–400 م، وهو من أشهر مؤرخي الفترة الرومانية المتأخرة. له تأليف عن تاريخ روما.

أما المرحلة الثالثة أو الفترة المتأخرة من الامبراطوريّة الرومانيّة فقد شهدت انتشار الديانة المسيحيّة واحتكار رجال الدين المعرفة أي القراءة والكتابة فتحولت الكتابة التاريخيّة كسائر العلوم الأخرى شيئا فشيئا تحت هيمنة الكنيسة والتوجه الدينيّ في تفسير الاحداث التاريخية خاصة في القرنين الرابع والخامس ميلادي. ومن أهم الأعمال ما قام به بعض القديسين أمثال:

– أوزابيوس (Eusèbe de Césarée): أسقف عاش مدينة سازري (الأصنام اليوم بالجزائر) ما بين 265–340 م. كانت تربطه صداقة بالامبراطور قسطنطين. ألّف كتاب "تاريخ الكنيسة" (*Histoire ecclésiastique*) خلال القرون الثلاثة الأولى الميلاديّة. وقد عرف خاصة بمعارضته للقديس أوغستيوس وبتعاطفه مع المذهب الآري (arianisme) الذي ينكر ألهية المسيح ويساند فكرة انفصال عناصر التالوث عن بعضها البعض.

- القديس أوغستنيوس (Saint Augustin): عاش ما بيـــن 354-430 م. يمثل أشهر رجالات هذه الفترة اذ طبع عصــــره بتفكـــيره وآرائـــه وتوجهه الديني. فهو من أب وثنيّ وأمّ مسيحيّة. كان أسقف عنابة وعــــرف بمقاومته للبدع والمارقين. له تآليف عديـــدة مــن أشـــهرها "مدينـــة اللّـــه" (*Cité de Dieu*). وقد كان تأثيرالقدّيس أوغستنيوس كبيرا في عصره ومـــن بعده طيلة القرون الوسطى التي عاشت على نمط تفكـــيره وتحـــت هيمنـــة الكنيسة ورجال الدين. فالرغم من كونه لم يكـــن مؤرخـــا. الا أنّ مؤلفاتـــه تستغل من قبل المؤرخين.

القرون الوســطى

يطلق مصطلح القرون الوسطى على فترة معيّنة من تاريخ أوربـــــا فقط تمتد من نهاية العصور القديمة الموافق لســـــنة 476 م تـــاريخ ســـقوط الامبراطوريّة الرومانيّة إلى حدود سنة 1453 م تاريخ سقوط القســـطنطينيّة أو سنة 1492 م تاريخ اكتشاف العالم الجديد أو أمريكا. وهي فترة تمـــيّزت بتدهور الأوضاع بأوربا الغربيّة حتّى أن الفترة المواليّة للقـــرون الوســطى والتي شهدت انتعاشة أوربا قد سمّيت بالنهضة أو الإنبعاث مع بداية القـــرن الخامس عشر ميلادي.

هذا وتنقسم القرون الوسطى أو العصر الوسيط إلى ثلاث فترات:

- العصر الوسيط المتقدم أو الأعلى (Le haut Moyen Age): من القرن الخامس ميلادي الى القرن العاشر.

- العصر الوسيط في حدّ ذاته (Le Moyen Age): مـــن القـــرن الحادي عشر إلى الثالث عشر ميلادي.

- العصر الوسيط المتأخر أو الاســـفل (Le bas Moyen Age): القرنين الرابع والخامس عشر ميلادي.

- ففي الفترة الأولى تنوّعت الكتابة التاريخيّة فاشتملت على:

. كتب المناقب: تهتم بحياة القديسين وتعداد خوارقهم وكراماتهم.

. كتب الحوليات: تمتاز بسردها للأحـــداث السياســيّة والعســكريّة حسب التسلسل السنويّ.

. كتب الوقائع: تشبه إلى حدّ كبير كتــــب الحوليـــات مـــن حيــث المحتوى.

. كتب التراجم والسير الذاتيّة: انطلق هذا الصنف من التآليف مـــع كتاب القديس أوغستنيوس "Confessions". ومن بين هذه الكتب نذكر سيرة الامبراطور شرلمان من طرف المؤرخ Eginhard الـــذي عاش مـــا بيـــن 770-840 م. وتعتبر هذه السيرة من أفضل ما كتب في العهد الكارولنجي.

كتب التواريخ مثل :

- Grégoire de Tours : أسقف ومؤرخ فرنسي (540 - 595 م). عرف بكتاباته المنقبية وتأليفه "تاريخ الفرنج" (*Histoire des Francs*)

-Paul Diacre : مؤرخ وشاعر لمـــبردي (720 - 793 م) تفـــرّغ للرهبة بعد أن تنقل بين البلاطات وكتب "تاريخ اللمبرديين" (*Histoire des Lombards*) الذي وثّقة أحسن توثيق.

تبدو الأحداث في هذه الكتب التاريخية مـــن صنـــع الإلاه بالدرجـــة الأولى ومن صنع الملوك ورجال الدين بالدرجة الثانية.

أما في الفترة الثانية فقد عرفت الكتابة التاريخيـــة تحـــوّلات هامـــة خاصة بداية من القرن الثاني عشر بظهور وعـــي جديـــد بـــالزمن ارتبـــط بالظروف الجديدة التي تعيشها أوربا بتطور المبـــادلات التجاريّـــة والنمـــو الحضريّ. ومن أشهر ما كتب في تلك الفترة كتابـــات المـــؤرخ الفرنســـيّ

Jean de Joinville (1224–1317م) وقد صاحب الملك لويس التاسع في حملته الصليبيّة السابعة ضد مصر.

شهدت الفترة الثالثة والأخيرة من القرون الوسطى بأوربا تحولات هامة حيث تعدّدت الحروب كحرب المائة سنة (1337–1453م) وتوالت الجوائح الطبيعيّة والمجاعات (1315، 1340، 1374 ...) والطواعين، (1348، 1363، 1374، 1384، 1410...) فتحولّت الكتابة التاريخيّة بدورها لتعبر عن المشاغل الجماعيّة وفي خدمة أصحاب السلطة السياسيّة. ومن أهمّ المؤرخين الذين برزوا في هذه الفترة:

– جون فرواسار (Jean Froissart) : شاعر ومؤرخ فرنسيّ عاش ما بين 1337–1410 م متنقلا بين البلاطات والعواصم الأوربيّة لجمع المعلومات لكتابه "الوقائع" *(Chroniques,* في 3 أجزاء عن أحداث الفترة المتراوحة بين 1328–1400 م. قدم لنا صورا حية عن فئة الفرسان بأوربا في عصره.

– توما بازان (Thomas Basin): من رجال الكنيسة الفرنسيّة عاش ما بين 1412–1491 م، كتب كتابين هامّين هما: "تاريخ شارل السابع" *(Histoire de Charles VII)* و"تاريخ لويس الحادي عشر" *(Histoire de Louis XI)*. ساهم في ردّ الاعتبار الى جان دارك (Jeanne d'Arc) من خلال تأليف وضعه لهذا الغرض.

– فيليب دي كومين (Philippe de Commynes): مؤرخ ورجل سياسة فرنسيّ (1447–1511 م). كان من مستشاري لويس XI وشارل VIII ولويس XII. تعتبر "مذكراته" *(Mémoires)* مصدرا هاما لمعرفة الأوضاع بفرنسا عقب حرب المائة سنة إذ كان شاهد عيان لما وصف وقد برهن في كتابة هذا عن قدراته كمؤرخ أكثر منه اخباري أو وقائعي.

ورغم ارتباط جلّ الكتابات التاريخيّة بالسلطة مع التركيز على الجوانب العسكريّة والسياسيّة والدبلوماسيّة واهمال تاريخ الفئات الضعيفة في المجتمع، فإنّ هذه الكتابات قد لعبت دورا هامّا خاصة مع نهاية القرن الخامس عشر ميلادي في تعميق الشعور الوطنيّ بأوربا.

الكتابة التاريخيّة عند العرب

يكاد يجمع المؤرخين العرب على أنّ التاريخ هو اخبار عن حوادث الماضي أو خبر في زمن من الأزمنة، لذلك أطلق بعضهم على التاريخ تسمية علم الخبر (ابن حزم والخوارزمي على سبيل المثال) وعدّه البعض الآخر صنفا من علوم الخبر التي تتضمن أيضا السير والأنساب والقصص. والخبر حسب التعريف المعتمَد في كلّ العلوم هو القول الذي يدخله الصدق والكذب اعتمادا على مبدا المطابقة والقياس الذين اعتبرهما ابن خلدون ضمانا للمؤرخ "ينكبان به عن المغالط والمزلات...".

* أيام العرب (المرحلة الشفوية) :

لقد فرضت الهيكلة القبليّة وطبيعة العلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة في المجتمع العربيّ الجاهليّ الاهتمام بمفاخر القبيلة وتعداد مثالب القبائل المعاديّة. وقد عرفت الروايات الشفويّة المتعلّقة بهذه النزاعات القبليّة والحروب فيما بينها بأيّام العرب التي تشكّل قسما كبيرا من الشعر الجاهلي. ومع أن روايات الأيام مضطرية من حيث الزمن ولا تخلو من العصبية القبلية وينقصها التماسك، فانها تتضمن كثيرا من الحقائق التاريخية فعدّها بعضهم فرعا من فروع التاريخ وديوان العرب بالرغم من أنّ ما وصل الينا أخبار العرب في الجاهلية يغلب عليها الطابع الأسطوري والخرافي اذ هي "بعيدة عن الصحة، عريقة في الوهم والغلط وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة" على حدّ قول ابن خلدون (المقدمة، ص 224) وقد ظلّت هذه

الأخبار تتداول شفويا جيل بعد جيل الى أن دوّنت في العصر الأموي وقد دخلها بعد الكثير من المبالغات والخرافات. فمعظم ما وصلنا يهمّ أخبار اليمن وملوكها من التبابعة، وأخبار قبائل عربيّة قد اندثرت كعاد وثمود وجديس، واخبار بني اسرائيل...

كما أن صلات الرحم والدمّ القويّة في ذلك المجتمع القبليّ قد فرضت أيضا على العرب الاهتمام بالأنساب وحفظ شجرات النسب، وقد تناقل الاخباريون والنسابون تلك الروايات حتى القرن الأول بعد الهجرة إذ يبدو أنّ تدوين هذه الأخبار والأساطير قد بدأ في العهد الأمويّ.

ومن المؤرخين العرب الذين اهتموا برواية أخبار العرب قبل الاسلام :

- عبيد بن شرية اليمني : كان قصاصا اخباريا، عاصر معاوية بن أبي سفيان وقيل أنه ألفّ له "كتاب الملوك وأخبار الماضين" في أخبار العرب في الجاهلية وأشعارهم وأخبار بنى اسرائيل.

- وهب بن منبه اليمني : اهتم بأخبار اليمن في الجاهلية اعتمادا على مصادر نصرانية يغلب عليها الطابع القصصي الخرافي. كان يجيد عددا من اللغات القديمة (اليونانية - السريانية - الحميرية...)

ومن أشهر الاخباريّن أيضا في فترة صدر الاسلام نذكر: أبو مخنف الأزديّ (ت. 157هـ / 713م) وسيف بن عمر الكوفيّ (ت. 170 هـ / 786م). ومن أشهر النسّابين: محمد بن سائب الكلبيّ (ت. 146هـ / 763م) وابنه هشام (ت. 204 هـ / 819م). وقد ضاعت جلّ مؤلفاتهم وان أخذ عنها بعض المؤرخين أمثال الطبري والمسعودي وغيرهما. فمن هم هؤلاء الإخباريين والنسّابة؟

– أبو مخنف الأزدي: لخباري من أهل الكوفة كان جده الأول مخنف صحابيا من شيعة علي، فكان حفيده أبو مخنف بدوره علويا. وقد اعتمد في كتاباته على الروايات القلبية والكوفية والمدينية. الا أنّ كل كتاباته قد ضاعت وما وصلنا منها الا ما نقله الطبري عنه.

– سيف بن عمر: عاصر أبا مخنف بالكوفة واعتمد خاصة على روايات قبيلته تميم في أخباره. وقد ضاعت أيضا كتاباته ونقل عنه الطبري.

– علي المدائني (ت. 225هـ): أخباري من البصرة ثم استوطن المدائن فنسب اليها. قال عنه بعضهم : " كان عالما بأيام الناس، وأخبار العرب وأنسابهم، عالما بالفتوح والمغازي ورواية الشعر، صدوقا في ذلك." ضاعت كل مصنفاته العديدة ولم يبق منها الا ما رواه الطبري والمسعودي والبلاذري عنه.

– محمد بن سائب الكلبي (ت. 146هـ) كان عالما بالأنساب واللغة والتاريخ. أهتم بجمع أخبار القبائل العربية معتمدا على أفضل نسابة في كل قبيلة، وقد خلفه في هذا العلم ابنه هشام.

– هشام بن محمد بن سائب الكلبي (ت. 204 هـ)، له كتاب "جمهرة النسب"، وصلت لنا قطعة منه. أهمّ بتاريخ الأنبياء والعرب في الجاهلية والفرس والعرب في صدر الاسلام. لذلك فانه يعتبر من أعظم الاخباريين. ولهشام كتب كثيرة ذكرها ابن النديم في "الفهرست" تقدر بنحو 140 كتابا لم يصل الينا منها الا ثلاثة.

* مرحلة التدوين :

شكّل الاسلامْ ثورة كبرى اذ أقحم بقوة العرب في السياق التاريخيّ وجعلهم يحتلون الصدارة على مسرح الأحداث العالميّة أنذاك.

فكان للقرآن وللسنة النبويّة الأثر البالغ في صياغة الكتابة التاريخيّة واعطائها منهجيّة معيّنة متميّزة. فقد جاء في القرآن ذكر لبعض أخبار العرب قبل الاسلام وبعض قبائلهم القديمة مثل عاد وثمود. كما وردت فيه أيضا العديد من القصص كقصص الأنبياء وملوك اليمن لهدف وعظي بحت، وبالتالي لا يمكن اعتبار القرآن كتاب تاريخ اذ ينقص هذه الأخبار التحديد الزمنيّ والمكانيّ، لذلك اضطر المفسرون الأوائل للاستعانة بالتراث اليهوديّ والمسيحيّ وروايات كلّ من كعب الأحبار (ت. حوالي 34 هـ) وابن منبه (ت. حوالي 100 هـ) وغيرهما.

كان للسنة النبوية أو الحديث بمعنى الخبر أو الرواية الشفوية دور كبير في ارساء قواعد الكتابة التاريخيّة على طريقة المحدثين ورواة السيرة وعنايتهم الفائقة بالاسناد ونقد الروايات المتعلقة بأطوار حياة الرسول وأفعاله وغزواته. لذلك نرى أنّ التاريخ الكونيّ عادة ما ينتهي عند المؤرخين المسلمين مع الرسالة المحمديّة ليبدأ مجال التاريخ الاسلاميّ.

تعتبر كتب المغازي والسيرة من أقدم الكتب التاريخيّة التي تجمع بين الحديث والتاريخ وتمثل أوّل شكل للكتابة التاريخيّة عند العرب. فمن أقدم هذه الكتب "كتاب المغازي" لعروة بن الزبير (ت. 92 هـ / 710م) الذي وصلتنا بعض رواياته في كتب ابن اسحاق والواقدي والطبري، كذلك كتاب عاصم بن عمر بن قتادة (ت. 120 هـ / 737 م) وكتاب أبان بن عثمان بن عفان (ت. 123هـ / 740م). لكن أشهرهم على الاطلاق هو كتاب محمد بن مسلم الزهريّ (ت. 124هـ / 741م) الذي وصلتنا منه بعض الروايات عن طريق كتب تلميذيه محمد بن اسحاق (ت. 151 هـ / 768م) والواقدي (ت. 210هـ / 823م). يرجع الفضل للزهري تأسيس مدرسة التأريخ بالمدينة وتوضيح خطوط كتابة السيرة. أخذ الزهري عن

كبار المحدثين بالمدينة فعرف بقوة أسانيده وامتاز بالاسناد الجمعي حيث يدمج عدة روايات في خبر متسلسل. لم يقتصر الزهري على كتابة السيرة والمغازي، بل كتب أيضا في الأنساب وتاريخ صدر الاسلام

– محمد ابن اسحاق : مولى من أصل فارسي عرف بكتابة السيرة التي تنقسم عنده الى ثلاثة أقسام : المبتدأ (تاريخ الجاهلية) والمبعث (حياة النبي حتى السنة الأولى للهجرة) والمغازي (حياة الرسول في المدينة وغزواته).

– الواقدي : مولى لبني هاشم، كان معاصرا لابن اسحاق وأخذ العلم عن شيوخ المدينة وفاق شيخه الزهري في الدقة وتحقيق تواريخ الأحداث وتوضيح الاطار الجغرافي للمواقع. ألفّ عدة كتب في المغازي والتاريخ اقتبس منها الطبري في كتابه " تاريخ الرسل والملوك".

نشطت حركة التدوين التاريخيّ بصفة خاصة بداية من القرن الثالث الهجري بوجود عوامل إيجابيّة منها حركة الترجمة واستحداث الورق إذ ظهر أوّل مصنع له في بغداد سنة 178هـ / 794م). وإلى هذه الفترة يرجع العديد من كتب التاريخ العام التي تنطلق عادة من قصة آدم والشعوب غير العربية قبل الاسلام مما يعطيها طابعها الكونيّ لتصبح اسلاميّة بحتة عند الحديث عن ظهور الاسلام والفترات الموالية. سلك المؤرخون العرب في كتاباتهم التاريخية منهجين: الأول التأريخ الحولي أو حسب السنين، والثاني التأريخ حسب الموضوعات (دول – أسر حاكمة...). فمن عيوب المنهج الأول تقطع الحادثة على عدد من السنين لذلك عمد بعض المؤرخين في العصور المتأخرة الى ترتيب المادة التاريخية في وحدات زمنية أوسع مثل نظام العقود (10 سنوات) الذي اتبعه الذهبي (ت 748 هـ) في كتابه "تاريخ الاسلام". فمن أقدم هذه الكتب في التاريخ العام:

- تاريخ خليفة بن خيّاط (ت. 240 هـ / 854م): هو محدث ومؤرخ بصريٍ وتاريخه من أقدم الحوليات في التاريخ الاسلامي (من السنة الأولى للهجرة إلى 230 هـ).

- عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري (ت. 276هـ / 889): له أيضا كتاب المعارف وكتاب الأمامة والسياسة المنسوب إليه. ويعاب عليه خاصة عدم ذكر مصادره.

- تاريخ اليعقوبي (ت. 284هـ / 897م): يقع في جزئين: الجزء الأول يهمّ تاريخ البشريّة منذ الخليقة، في حين أنّ الجزء الثاني مرتّب حسب الخلفاء إلى خلافة المعتمد على اللّه.

- تاريخ الطبري (ت. 310هـ / 923م): هو أشهر المؤرخين على الاطلاق، وهو محدث قبل كلّ شيء له اهتمامات تاريخيّة. اعتمد في كتابه على سلسلة من الرواة قد ضاعت كتاباتهم أمثال سيف بن عمر وأبي مخنف. يعتبر كتاب "تاريخ الرسل والملوك" من صنف الحوليات يبدأ بقصة الخليقة وينتهي إلى أحداث سنة 302هـ. سلك الطبري في كتابة "تاريخه" منهج المحدّثين فأورد عن الحدث الواحد العديد من الروايات خاصة فيما يتصل بأحداث القرنين الأول والثاني الهجري لتصبح المعلومات أقلّ دسامة كلّما اقترب المؤلف من أحداث عصره.

- المسعودي (ت. 345 هـ / 956م): صاحب "مروج الذّهب" و"التنبيه والإشراف". جمع المسعودي مادته ورتّبها حسب الموضوعات مع التطرق إلى تواريخ بعض الأمم كالهند والفرس والروم واليهود... متأثرا في ذلك بطريقة اليعقوبي التي تمزج بين الموضوعات والتسلسل الزمني لتاريخ الحكام والخلفاء. وقد اتبعه في هذا المنهج ابن قتيبة الدينوري

(ت. 276 هـ/ 889م) في كتابه "المعارف" الذي يبدأ فيه بالخليقة الى خلافة المعتصم.

- مسكويه (ت. 421 هـ / 1030م): صاحب "تجارب الأمم" الذي اعتمد فيه على كتاب الطبري. جمع مسكويه بين التاريخ والفلسفة والطبّ والسياسة وأحوال الحرب اتخذ مسكويه في كتابه "تجارب الأمم" من أحداث التاريخ أمثلة ومواعظ، لذلك يقتصر على ذكر الأحداث التي يمكن لأهل زمانه أن يستفيدوا منها ولا يهتم الا بما كان تدبيرا بشريا لا يقترن بالاعجاز.

وبالإضافة إلى التواريخ العامة هناك التواريخ المحليّة أو الإقليميّة مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وكتاب أخبار مكة للفاكهي وتاريخ دمشق لابن عساكر و"المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" للمقريزي في تاريخ مصر، وكتاب "حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة" للسيوطي، وكتاب "زبدة الحلب من تاريخ حلب" لابن العديم، وكتاب "البيان المغرب في ذكر أخبار الأندلس والمغرب "لابن عذاري المراكشي في ثلاثة أجزاء...

وفي المقابل اهتم الفقهاء بفن التراجم فصنفوا كتب الطبقات في حملة العلم باعتبارهم ورثة الأنبياء من محدثين ورواة وأطباء وشعراء ونحاة وقضاة... (على سبيل المثال كتاب طبقات علماء افريقية وتونس لأبي العرب القيروانيّ) وفي القرن الرابع أصبحت التراجم مرتبة بحسب الترتيب الأبجدي على نظام المعاجم كما في كتاب "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي، في حين كانت من قبل مرتبة زمنيا بحسب نوعية العلم مثل" رفع الاصر عن قضاة مصر" لابن حجر أو "المرقبة العليا..."عن قضاة الأندلس للنباهي.

كما اهتم العرب بالجغرافية اهتماما خاصا، فكان أول من كتب في هذا الفنّ هم أنفسهم الذين كتبوا في التاريخ العربي أمثال هشام بن محمد الكلبي الذي ألف كتابا في البلدان، والأصمعي الذي ألف كتبا في النبات والشجر والأنواء والمياه ووصف جزيرة العرب، وأحمد الرازي الذي ألف في وصف الأندلس والمغرب. وزاد اهتمام العرب بالجغرافية باتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية عن طريق الفتوحات فؤلفت عدة كتب في المسالك والممالك وتقويم البلدان (ابن خرداذبة- اليعقوبي - ابن رسته- ابن الفقيه- الرازي- ابن حوقل- البكري- الادريسي- المقدسي....)

كان لابن خلدون دور هام في بلورة مفهوم التاريخ وغاياته عند العرب. فخلافا لكلّ سابقيه وخاصة الطبري، لم يعد التاريخ ذلك السرد الجاف للأحداث المعتمد على النقل، بل أصبح علما قائما بذاته وهو كما قال ابن خلدون: "... فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم... فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوّعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ وينكبان به عن المزلات والمغالط" (إبن خلدون، المقدّمة، ص 6).

فالتاريخ في ظاهره أخبار عن الأيام والدول والسابق من القرون وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل وعلم بكيفيّة الوقائع وأسبابها يحتل فيه الانسان المركز بفضل أعماله وسعيه الدائم وعلمه أو ما يطلق عليه ابن خلدون مصطلح "العمران البشري" الذي هو المحرّك الرئيسي والدافع القوي للتاريخ، ذلك "الخبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحّش والتأنّس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك

والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعـاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال..."

فأحوال الانسان في تطوّر مستمرّ وبالتالي فإن تغيّر الأحـوال هـو القانون الذي بمقتضاه يسير ذلك التطوّر المطرّد، فإنّه من الخطأ ما اعتقـده القدامى بأنّ التاريخ يعيد نفسه، فالتاريخ متجدّد لا تكرار فيه وهـو كالحيـاة نموّ ورقيّ مستمر. يقول ابن خلدون في هذا المجال "ومن الغلط الخفي فـي التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم لا تدوم على وتـيرة واحـدة ومنهاج مستقرانما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حـال الـى حال".

وتبعا لذلك فقد وقع المؤرخون السابقون في أخطاء آخذها عليهم ابن خلدون وعددها على النحو التالي:

- نقل الروايات عن السابقين بأغلاطها وزلاتـها دون أن يقومـوا بنقدها فأدوها كما سمعوها و"لم يلاحظوا أسباب الوقـائع والأحـوال ولـم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها. فالتحقيق قليل... والنقـل اذا تمّ دون أن يقوم الناقل بمراجعة ما نقله ودون قياس الماضي بالحـاضر والغائب بالشاهد عدّ خطأ كبيرا... فكثيرا ما وقـع للمؤرخيـن والمفسـرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقـل غثاّ أو سمينا، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سـبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصـيرة فـي الأخبار..."

- البعد عن الواقعية والأغراب في الخيال الى حدّ تزييـف الخـبر وتشويهه والمبالغة في ذكر الأساطير كنسب البربر وزعم بعضهم هجرتـهم

من اليمن الى افريقية وارجاع تسميتهم الى افريقش بن قيس بن صيفي مـــن أعاظم ملوك اليمن ...

– الغفلة عن تبدّل أحوال الأمم والأجيال بمرور العصور والأيـــام واعتقادهم أنّ أحوال العالم في عصرهم هي نفسها في العصور الماضية لـــم تتغير.

– يشرط ابن خلدون في المؤرخ أن يكون عارفا "بقواعد السياســية وطبائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السير والأخــلاق والعوائد والنحل والمذاهب وسائر الأحوال..." كما يشـــرط فـــي المـــؤرخ االتمييز بين المقبول والمردود وذلك أنّ كلّ خبر قابل للصدق والكذب.

المراجــع:

– روزنتال (فرانس)، *علم التاريخ عند المسلمين*، ترجمـــة صـــالح أحمد العلي، بغداد 1963.

– جيب (هملتون)، *التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى*، المركز العربي للكتاب، دمشق.

– الدوري (عبد العزيز)، بحث في *نشأة علم التاريخ عند العـــرب*، بيروت 1960.

- Triki (F), *l'esprit historien...*, M.T.E, Tunis 1991.

- Roussel (D), *Les historiens grecs*, Paris 1973.

- Arnand (P), *Les sources de l'histoire ancienne*, Paris 1995.

- Tomadakis (A), l'histoire en Grèce dans l'Antiquité, in *l'Histoire, Montreuil, Breal 1980 p.p. 5-11*

- Le Gall (A), l'histoire à Rome dans l'Antiquité, *in l'histoire, Montreuil, Breal 1980, p.p 13-39.*

V. المــدارس التــاريخيّــة

"Ce sont les différents discours de la méthode historique et les différents modes d 'écriture de l'histoire"

(G. Bourdé)

انتعشت فلسفة التاريخ خاصة منذ القرن XVIII مع عصر الأنــوار حينما ظهرت أفكار حول مستقبل المادة وتطــور الكائنــات الحيــة وتقــدم الانسان. وفي القرن XIX وتحت تأثير مبادىء الثورة الفرنســية وثــورات أوربا الأخرى ازدهرت فلسفات التاريخ بحثا عن معنى للحياة البشرية. وقــد آمن بعض المفكرين أنذاك (فولتــار- كــانت- كوندورســي...) بحركيــة تصاعدية للانسانيّة نحو وضعيّة مثالية. وتمثّل أراء هيغل وكونت أنموذجـــا في هذا الاتجاه، فبدأ اذن تنظيم الحقب التاريخية والنظـــر فــي التحــولات وتحليل التطور العام للكون حسب المنطق الديكارتي. وباتخاذ كارل مــاركس من الماديّة التاريخية نظرية علميّة فقد جعل تطور الانســانية موجّــه نحــو هدف معيّن في اطار فلسفة التاريخ.

وتدرجيا ابتعد المؤرخون عن المزايدات الفلسفيّة وتوجـــهوا نحــو فحص مختلف الوثائق ونقدها في اطار صناعة التاريخ خاصـــة مــع رائــد المدرسة الوضعية أوقست كونت (A. Comte) (1798-1857).

لا يكتب التاريخ بمنهج واحد، بل بمناهج عدّة. فمجموع أنماط طرق الكتابة التاريخية ومقارباتها تكوّن المدارس التاريخيّة التي عرّفها بعضهم : "بأنّها مختلف الخطابات للمنهج التاريخيّ ومختلف الأنماط في كتابة التاريخ".

« Ce sont les différents discours de la méthode historique et les différents modes d'écriture de l'histoire » (G. Bourdé, *Les écoles historiques*, éd. du seuil, Paris 1983, p. 8).

يواجه الطالب عند اعداد عرض أو شرح نصّ تاريخيّ صعوبتين على الأقلّ : انتقاء البيليوغرافيا من ناحية والتوفيق بين مختلف النظريّات أو الأطروحات المتباينة التي تعترض الطالب في قراءاته من ناحية أخرى. لذا فمن المفيد والضروري أن يلمّ طالب قسم التاريخ بمختلف المدارس التاريخيّة وطرق مقارباتها لقضايا التاريخ.

المدرسة الوضعيّة (L'école positiviste)

ظهرت هذه المدرسة في وقت قويت فيها حركة القوميّات بأوربا في أواخر القرن XIX وفي اطار الجمهوريّة الثالثة الفرنسيّة وعزمها على استعادة منطقة ألزاس - لوران (Alsace-Lorraine) وبرنامجها الإستعماري التوسعي.

أفصح رائد هذه المدرسة بفرنسا المؤرخ مونود (G. Monod) في البيان الذي نشره في 1876 بمناسبة صدور العدد الأول من "المجلة التاريخيّة" (La Revue historique) عن مبادئ المدرسة :

- فرض بحث علمي في التاريخ بعيد عن كلّ المزايدات الفلسفيّة.
- بلوغ الموضوعيّة المطلقة في مجال التاريخ.
- تطبيق تقنيات صارمة في جرد الوثائق ونقدها.

ومما ساهم في نمو هذه المدرسة تواجد مؤرخيـــها ضمـــن اطـــار التدريس بمختلف الجامعات وعلى رأس ادارة بعض المجموعـــات العلميـــة والتاريخية الكبرى مثل تاريخ فرنسا (*Histoire de France*)، التاريخ العام (*Histoire Générale*)، وشعوب وحضارات (*Peuples et Civilisations*). كما ساهم هؤلاء المؤرخون في ضبط الـــبرامج التعلميّـــة وتـــأليف الكتـــب المدرسية لتلاميذ المعاهد الثانوية والمدارس الابتدائية والتـــي مـــن خلالـــها عملوا على غرس في الناشئة قيم النظام الجمهوري وتغذية الشعور القومـــي وتدعيم السياسة الاستعمارية التوسعيّة، وبالتالي فانهم حرصوا على تمريـــر خطاب ايديولوجي معيّن.

ولئن أعلنت "المجلة التاريخية" ومـــن ورائـــها أنصـــار المدرســـة الوضعية حيادها وعدم انحيازها في كتابة التاريخ وصدّها عـــن النظريـــات السياسيّة والفلسفيّة وتسخير نفسها "للعلم الوضعي" الذي هـــو التـــاريخ فقـــد انتصبت هذه المدرسة مدافعة عن نظام أخلاقيّ قائم علـــى تنميـــة الشـــعور القوميّ الذي يستمد جذوره من الماضي، أي من التاريخ، الـــذي لا بـــدّ ان يدرّس اعتمادا على الوثائق المكتوبة وبالتركيز على الوقـــائع. أمّـــا مهمّـــة المؤرّخ الرئيسيّة فهي تجميع الوثائق والعمل على صيانتها وحفظها فـــي دور الأرشيف واستغلالها بكلّ تجرّد وحياد على غرار ما كان دعى إليه من قبـــل رائد المدرسة الوضعيّة المؤرّخ الألمانيّ ليوبال فان رنـــك (Léopold Von Ranke) الذي عاش ما بين 1795-1886.

فهذا المؤرخ الألماني قد سيطر على الكتابة التاريخيّة في منتصـــف القرن XIX من خلال نظريته القائمة على المبادئ التاليّة:

– تتمثّل مهمة المؤرخ في وصف ما وقع حقيقة في الماضي وليـــس في تقييم ذلك.

– حياد المؤرخ التام تجاه الأحداث التي يكتب عنها.

- التاريخ هو بمثابة المرآة العاكسة للماضي وعلى المؤرخ تسجيل الحدث بكلّ تجرّد وموضوعيّة.

أخذت المدرسة الفرنسيّة عن المدرسة الألمانيّة تلك المبادئ خاصّة وأنّ جلّ أفرادها (Monod -Langlois - Seignobos - Lavisse ...) قد أقاموا بعض الوقت بألمانيا ودرّسوا بجامعتها فنقلوا إلى فرنسا أفكار رنك ونظرياته في كتابة التاريخ ونقد الوثائق ودور المؤرخ في كلّ ذلك. ويعترف مؤرخو المدرسة بفرنسا بالخدمات الجليلة التي قدمها المؤرخون الألمان الى البحث التاريخي أمثال رنك (Ranke) - نيبور (Niebuhr) - ممسن (Mommsen) لاسن (Lassen) وغيرهم وما قاموا به في مجال تجميع الوثائق في فهارس متميزّة كالتالي خصصت للنقائش (Monumenta Germanicae)...

فالتاريخ في نظر الوضعيين هو قبل كل شيء انعكاس محتوى الوثائق المكوّنة لرصيد المؤرخ المعرفي. فعلى هذا الأخير البحث عنها والعمل على حفظها وصيانتها في المتاحف والمكتبات العمومية والخاصة ودور الأرشيف وضبطها في فهارس. ثم يقوم المؤرخ في مرحلة أخرى بنقد الوثائق على المستويين الخارجي (critique externe) والداخلي (critique interne). وتلي هذه المرحلة التحليلية عملية التأليف (synthése) التي تتمّ بدورها على مراحل: مقارنة الوثائق، تجميع الأحداث في أطر عامة مثل المعطيات الطبيعية والأنشطة الإقتصادية والفئات الإجتماعية والمؤسسات السياسية...، اقامة العلاقات بين هذه الأحداث وأخيرا التأليف. ونظرا لتشعب العمليات يستحسن تقسيم العمل.

إلاّ أنّ هذه المدرسة التي كانت تدعو نظريًا إلى الموضوعيّة المطلقة كرّست في الواقع انتاجها لخدمة مبادئ الجمهوريّة الثالثة ونزعتها الإستعماريّة بواسطة خاصة كلّ من محتويات "المجلّة التاريخيّة" والكتب

المدرسيّة. فقد ساهم مؤرخو المدرسة الوضعية في وضع الكتب المدرسية خاصة في مواد التاريخ والجغرافيا والتربية المدنية حيث الخطاب الايديولوجي مركزّ على حبّ الوطن والنظام الجمهوري وتعليل الظاهرة الاستعمارية على أنّ لها رسالة حضارية وتجعل من البلد المستعمر قوة اقتصادية.

لكنّ هذه النظرة الضيّقة لمفهومي التاريخ والوثيقة انتقدت منذ أوائل العشرينات من طرف أنصار "مجلّة التأليف" الجديدة أنذاك *(La Revue de synthèse)* وروّاد مدرسة الحوليّات.

مدرسة الحوليّات (L'école des Annales)

ظهرت هذه المدرسة كردّ فعل عن المدرسة الوضعيّة ونقائصها العديدة بالتفاف مجموعة من المؤرّخين في أواخر العشرينات (1929) حول مجلّة "حوليّات التاريخ الإقتصاديّ والإجتماعيّ *les Annales d'histoire économique et sociale*" أمثال مارك بلوك (Marc Bloch) ولوسيان فيفو (Lucien Febvre) ثمّ فرنون برودال (Fernand Braudel) وغيرهم. وقد ساهمت الازمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929 في توجيه اهتمام المؤرخين الى دراسة القضايا الاجتماعية والاقتصادية. والواقع أنّ هذا التوجه بدأ منذ أوائل العشرنيات مع عالم الاجتماع والاقتصاد الألماني ماكس فيبر (Max Weber) (1864-1920) صاحب نظرية النمط المثالي (Idealtype) التي طبّقها على دراساته التاريخية والاجتماعية واتخذ منها منهجا صارما لتفسير الأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية بالاعتماد على دراسة الظواهر المنفردة كأطر توجيهية لعمل المؤرخ.

فقدعاب أنصار مدرسة الحوليات على المدرسة الوضعيّة وآخذوها على:

- اهمالها للوثائق غير المكتوبة وخاصة الوثائق الأثريّة.

- تركيزها على الأحداث السياسية والعسكريّة والدبلوماسـيّة مع اغفال للقضايا الإقتصاديّة والإجتماعيّة والثقافيّة.

- غياب التأويل والروح التأليفيّة في أعمالها وبحوثها.

- زوغها عن مبادئها وخاصة عن مبدإ الموضوعية والحياد العلمي وانحيازها الى اديولوجية سياسيّة معيّنة.

أولت مدرسة الحوليّات اهتماما بالغا بالتاريخ الإقتصاديّ والتنظيمات الإجتماعيّة والقضايا الثقافيّة بالإضافة إلى التاريخ الوقـائعيّ. كما سعت المدرسة إلى تقريب التاريخ من سائر العلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة الأخرى. واهتمت في السبعينات بمسائل الديمغرافيا التاريخيّة وبتاريخ العقليّات. فهي بذلك ترفض هيمنة العامل السياسيّ على العوامل الأخرى وإن كانت تقرّ أنّ لهذا العامل دورا كبيرا في تفسير الأحداث، ولكنّه ليس بالعامل الوحيد.

تدعّم هذا الإتجاه على إثر الحرب العالميّة الثانيّة بتغيّر العنوان الذي أصبح على نحو: (ESC) (*Economies, Sociétés, Civilisations*) *Annales* وذلك تعبيرا عن اتساع مجالات الإهتمام الذي أصبح يمسّ تقريبا كلّ مظاهر الحياة اليوميّة في الماضي، وتحمل اليوم عنوان:

"Les Annales, Histoire, Sciences Sociales"

ومن أبرز رواد مدرسة الحوليات نذكر :

* لوسيان فيفر(Lucien Febvre) (1878 – 1956) خريج دار المعلمين العليا بباريس وجامعة السربون. وكان للقائه بمارك بلوك في العشرينات بجامعة سترازبورغ الأثر البالغ في تدعيم توجهه الرافض للمدرسة الوضعية ومفهومها للتاريخ. وبالتعاون مع أساتذة من لختصاصات متنوعة أنشأ مجلة "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" في 1929. وقد

جاء في توطئة عددها الأول أنّ من أهدافها: العمل على تداخل مواد العلـوم الانسانية والاقلاع عن المزايدات النظرية لانجاز أبحاث ميدانية وجماعيـة تعتمد بالاضافة الى الوثائق المكتوبة على ما هوغير مكتوب كالآثار وتمـس كلّ المجالات بما في ذلك البنى الذهنية على غرار ما قام به فيفر في تأليفـه "ديانة رابلي" *La religion de Rabelais* فكان فيفر مـن دعـاة "التـاريخ الكلي" الذي يعنى بكّل مظاهر الأنشطة البشرية ويختلف عنّ تاريخ المدرسـة الوضعية وقد عارض في دراسته عن رابلي الأطاريح التي كـانت شـائعة أنذاك (1942) والتي صوّرته ملحدا. كما عاب على سابقيه "قراءة نصـوص القرن السادس عشر بنظرة رجل القرن العشرين" وبيّن أنّ ديانة رابلي يجـب أن تفهم بالرجوع الى فلسفة ايرازم (Erasme) المسـيحية المعتمـدة علـى قراءة العهد الجديد. وبذلك وجه فيفر التاريخ الى دراسة البنى الذهنيّة.

* مارك بلوك (Marc Bloch) (1886– 1944) من عائلـة ثريـة يهودية وخريج دار المعلمين العليـا وجامعـة السـربون. درّس بجامعـة سترازبورغ من 1919 الى 1939 وهناك ربط علاقات متينة مع مؤرخيـن وأساتذة بقسمي علم الاجتماع والنفس وساهم فـي بعـث مجلـة الحوليـات كمؤرخ مختص في العصر الوسيط، وأشتهر كذلك بكتابة ثلاثة مؤلفات قيمة عن المجتمع الاقتصاعي وخصوصيات التاريخ الريفي الفرنسي.

وفي جوان 1944 اعتقلته السلط النازية وقتلته وكان من قبـل قـد شرع في تحرير كتابه المنهجي "حرفة المؤرخ" والذي نشـره بعـد وفاتـه صديقه لوسيان فيفر. وتركزّت اهتمامات مارك بلوك خاصة على القضايـا الاقتصادية تحت تأثير المدرسة الماركسية وأبحاث كـلّ مـن الاقتصـادي سيميون (Simiand) والمؤرخ هوسر (Hauser).

وأكدّ مارك بلوك على ضرورة المام المؤرخ بعلوم شتى كعلم الآثار الديمغرافيا والجغرافيا والاحصاء والفن واللغات القديمة والحديثة والاقتصـاد

وعلم الاجتماع والألسنيّة... وبالتالي من الأفضل العمل ضمن فرق البحث تجمع اختصاصات مختلفة. وخلافا لسابقيه من المؤرّخين فانّ مارك بلوك يرى أنّ الرصيد الوثائقي بحوزة المؤرخ غير محدّد ويحثّ على عدم الاقتصار على استعمال الوثائق المكتوبة واعتماد المواد الأثرية والفنية والمسكوكة... كما يدعو الى اكتشاف مجالات جديدة للدراسات التاريخية (الاقتصاد- الأنتروبولوجيا- الذهن...) والى تداخل التاريخ مع المواد الأخرى الانسانية ايمانا منه بوحدة هاته المواد المكوّنة لعلوم الانسان.

يحتوي كتاب مارك بلوك *Le métier d'historien* على خلاصة أفكاره: أهميّة الفهم في الكتابة التاريخيّة بتجنب المؤرخ للأحكام التقييميّة والتخلي عن الأحكام المسبقة والمشاعر والميولات الفرديّة قصد بلوغ المعرفة الموضوعيّة التي هي هدف تنشده مختلف المدارس التاريخيّة. ففي نظر مارك بلوك "يجب فهم الماضي انطلاقا من الحاضر وفهم الحاضر على ضوء الماضي":

"*Comprendre le passé à partir du présent, et comprendre le présent à la lumière du passé*" (p.11, 13).

* فرنون برودال (Fernand Braudel) (1902-1972) التحق للتدريس بالجزائر بعد احرازه على التبريز في التاريخ. وهناك أعدّ أطروحته "البحر الأبيض المتوسط والعالم المتوسطي على عهد فيليب الثاني" تحت اشراف أستاذه لوسيان فيفر. وقد مكنّه دنك من اعتماد مصادر أرشيفية بمخازن مواني ضفاف البحر المتوسط وكتابة أطروحة ضخمة للغاية (1160 صفحة في طبعتها الأولى و1220 صفحة في طبعتها الثانية). وهي دارسة بنيوية لوسط جغرافي معيّن نظر اليه من زاوية تاريخية على أساس الجغرافية كعلم مساعد للتاريخ، كفرع معرفي تاريخي، وبهدف المزج بين العلمين عن طريق "خلق جغرافية بشرية استرجاعية حقيقية... والرغبة في

تكريس تضافر علمين اجتماعيين هما التاريخ والجغرافيا، اللذين لم يعد ثمّة داع للابقاء عليهما منفصلين." وبذلك وسّع برودال حقل التاريخ ليشمل زمانية المكان أو المجال (العالم المتوسطي) تمشيا مع روح مدرسة الحوليات. فمركز الاهتمام في الدراسة ليس شخصية فيليب الثاني بل المجال البحري أي المتوسط في القرن السادس عشر. أكدّ برودال أنّ التاريخ متعدد الاتجاهات ولا يسير دوما الى الآمام، بل يتراجع كذلك، وأنّه جدليّة للمجال والزمن المتعدد (زمن جغرافي- زمن اجتماعي وزمن فردي).

انبثقت عن مدرسة الحوليّات في السبعينات مدرسة "التاريخ الجديد" التي أولت اهتماما بكلّ المجالات بدون استثناء ورفضت كلّ نسق تفكير منظّم، ويمثّل هذا الإتجاه مؤرخون أمثال : جورج دوبي (G. Duby)، لووا لادوري (E. Le Roy Ladurie)، جاك لوقوف (J. Le Goff) وغيرهم ...

وتمشيّا مع اتجاه المدرسة الجديد فتحت مجلة "الحوليات" صفحاتها لغير المؤرخين في اطار تداخل المواد وتعدد الإختصاصات كعلماء الإجتماع والإقتصاديين والديمغرافيين وغيرهم مع احتفاظ التاريخ بالنصيب الأوفر. كما تفتحت المجلة على كلّ الحقب التاريخيّة وكلّ أرجاء العالم تعبيرا عن طموحاتها الكونيّة وعن نواياها لإعادة قراءة التاريخ على ضوء المصادر المعروفة أو المكتشفة حديثا (على سبيل المثال حصيلة الإستكشافات الأثريّة الجويّة).

المدرسة الماركسيّة-الماديّة التاريخيّة

ولد كارل ماركس بمدينة تراف (Trèves) سنة 1818 في عائلة ارستقراطيّة يهوديّة. التحق بجامعات بون وبرلين وتنقل بين بعض العواصم الأوربيّة (باريس-بروكسال- لندن). وربطته بالفيلسوف انقلز (F. Engels) صداقة قويّة. وفي 1867 أصدر ماركس الجزء الأول من كتابه الضخم "رأس المال". وبعد موته (1883) أصدر صديقه انقلز الجزء الثاني (1885)

ثمّ الثالث (1894). وفي 1843 كتب ماركس "نقد فلسفة قانون هيقل" بينّ فيه أنّ الدولة لا تشكلّ المجتمع المدني، بل بالعكس فانّ المجتمع هو الذي يؤسس الدولة. وعند دراسته لأعمال الاقتصاديين الأنجليز والفرنسيين (سميث- ريكاردو- ميل- سيسموندي...) اكتشف ماركس مدى أهميّة الشغل في حياة العامل، وتبلّورت لديه أكثر هذه الأفكار بعد ثورات 1848 عندما حلل في تأليفه الضخم "رأس المال" (Le capital) دور الشغل في تغليل العامل وبيّن أنّ العلاقات بين الناس قائمة على علاقات الإنتاج التي هي القوى الماديّة المنتجة (مصادر الطاقة - مواد أوليّة - عمّال). فنمط الإنتاج يحدّد نوعيّة الحياة الإجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة، وبالتالي فالتاريخ هو تعاقب أنماط انتاج مختلفة (العهد القديم قائم على نمط انتاج عبوديّ، العهد الوسيط قائم على نمط انتاج اقطاعيّ ...)

فرضت الماركسيّة نفسها في فترة ما بعد الحرب العالميّة الثانية، فانخرط العديد من المثقّفين في الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ ما بين 1945- 1960 واتّجهت اهتمامات المؤرّخين للقضايا الإجتماعيّة عامّة والعمّاليّة خاصّة.

أخذ ماركس عن هيقل الطريقة الجدليّة، فجعل من التناقضات داخل المجتمع المحرّك الأساسيّ للتاريخ، أي أنّ القوى المنتجة فيه في تناقض مع علاقات الإنتاج فيؤدي ذلك الى صراع الطبقات، أي صراع بين الطبقات المهيمنة والمالكة لوسائل الإنتاج والطبقات المهيمن عليها والتي تملك قوّة عملها فقط. فتاريخ مجتمع ما هو في نهاية الأمر تاريخ صراع الطبقات فيه. وما يميّز طبقة عن أخرى هو امتلاكها أو عدم امتلاكها لوسائل الانتاج من ناحية وأصولها ومستوى دخلها من ناحية أخرى. هذا ولا تكوّن أي مجموعة بشرية طبقة اجتماعية الا اذا ما كان أفرادها متماسكين فيما بينهم وواعين

بمصالحهم المشتركة يتجسم ذلك الوعي من خلال الاضرابات أو الانتفاضات أو الانتخابات أو التنظيم الحزبي والجمعياتي والنقابي...

الا أنّ هذا التوجه الاقتصادي للتفكير الماركسي أثار ردود فعل قبيل الحرب العالمية الأولى في اطار الآممية الثانية التي دعت الى مراجعته. وتدعم ذلك أكثر بعد اندلاع الثورة البولشيفية. فدعى بعض الماركسيين الى ايلاء العامل النفساني المكانة التي يستحقها في تفسير الأحداث التاريخية على أساس "أنّ العلاقة السببية بين الكائن الاجتماعي والوعي هي جذع المادية التاريخية... وأنّ علم النفس الاجتماعي وعلم التاريخ علمان مترابطان (بورشنيق، علم النفس الاجتماعي والتاريخ، ص 7)، لذلك نادى بعض الماديين الاقتصاديين الى "نفسنة التاريخ" – أي تفسير التاريخ على أساس نفسي/ سيكولوجي – متأثرين في ذلك بمواقف لينين ومراعاته لهذا الجانب في عمله. كما انتقد كثيرون نظرية التفسير المادي للتاريخ وآخذوها على:

– منطق الحتمية التي تنعدم فيها حرية الارادة الانسانية، فالقوى الاقتصادية أقوى من ارادة الأفراد والطبقات.

– النظرية الأحادية في التفسير التاريخي تغفل الصفة الفردية للحدث التاريخي وتجعل العوامل كلّها تابعة للعامل الاقتصادي.

– اهمال العامل الروحي والديني كدافع للحياة الاجتماعية ومنظم للعلاقات بين أفراد المجتمع.

شهدت الستينات انتعاشة للدراسات الماركسيّة على ضوء كتابات الإيطاليّ انطونيو قرمشي (A. Gramsci) المتوفي 1937 الرافض للحتميّة الإقتصاديّة. ففي فرنسا إلتفّ جمع من المثقفين حول الفيلسوف الشيوعيّ لويس ألتوسار (L. Althusser) لإعادة قراءة "رأس المال" على ضوء التمشّي البنيويّ فأفرزت توضيحا وتدقيقا لعدة مفاهيم أساسيّة عند ماركس

مثل : نمط انتاج، قوى منتجة، ايديولوجيا، تكوّن اجتماعي... وهي مفاهيم يستعملها على حدّ السواء وبكثرة المؤرخون وعلماء الإجتماع والإقتصاديون...

لا أحد ينكر مزيّة الفكر الماركسي في مجال الكتابة التاريخية ولفت النظر الى أنّ تاريخ الملوك والحوادث ليس بداية التاريخ ولا نهايته وانما هو عامل من ضمن العوامل المحركة للتاريخ. الاّ أنّ تعنت الماركسية بجعل المادية الجدلية المحرك الوحيد والأساسي للتاريخ دفع العديد من المؤرخين بمراجعة مواقفهم منها.

المدرسة الإستشراقيّة

يعني مصطلح الإستشراق (Orientalisme) الإهتمام بالشرق وحضاراته من طرف الغرب، وبالتالي المستشرقون هم فئة من الباحثين والمؤلفين الأروبيين الذين تناولوا بالبحث وإبداء الرأي بعض قضايا التاريخ واللغة والأدب العربي والدين الإسلامي.

هذا ومن المختصين من يميّز بين الإستشراق الذي يركّز على دراسة اللغات الشّرقية وحضاراتها والإستعراب الذي يهتمّ بدراسة اللسان العربي وحضارة العرب. فدارس الصنف الأول هو المستشرق (orientaliste) والثاني هو المستعرب (Arabisant) ويطلق على جملة الدراسات التي يقوم بها المستعربون مصطلح الدراسات العربيّة.

يرجع اهتمام شعوب العالم بالعرب إلى دخولهم بقوة في القرن السابع الميلادي مسرح التاريخ وصنع الأحداث في العالم القديم بواسطة الدين الإسلامي الذي أقحم العرب في السياق التاريخي اذ بفضله أصبحت لهم مكانة الصدارة على مسرح الأحداث. فبعد أن كانت تصورات العرب للحدث تنطلق من القبيلة وتنتهي إليها فقد تحولت إلى وعي إيجابي في إطار

تاريخ كوني ينطلق من قصة ادم وينتهي بخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم الذي خرج من "خير أمّة أخرجت للناس" ليحمل رسالة موجّهة إلى العالم كلّه.

كان للحركة الإستعمارية دور كبير في تطوّر الإستشراق الذي استفاد من التمويلات ومن سهولة التنقل في أرجاء البلدان المستعمرة. فتأسّست العديد من الجمعيّات الإستشراقية والإستعرابية أمثال الجمعية الملكيّة الاسيوية بلندن عام 1834 والجمعيّة الاسيوية بباريس عام 1822 والجمعيّة الأمريكيّة الشرقية عام 1842. كما عقد المستشرقون ما بين 1873 والحرب العالمية الأولى ستة عشر مؤتمرا. وعلى إثر الحرب العالمية الثانية أسّس الأمريكيون "معهد الشرق الأوسط" بواشنطن سنة 1946 و"مجلس الشؤون الشرق أوسطية" بنيويورك سنة 1949، وبذلك تحوّل الإستشراق إلى مجال جغراسياسي (Géopolitique) مع ظهور مفهوم الشرق الأوسط منذ ذلك التاريخ لتصبح الدراسات الإستشراقية عبارة عن تقارير لإرشاد رجال السّياسة.

وعموما فقد ساهم الإستشراق حتّى منتصف هذا القرن بعمل ضخم في تحقيق ونشر العديد من التآليف العربية بالإضافة إلى وضع دائرة المعارف الإسلامية *(Encyclopédie de l'Islam)* وإصدار حوالي خمسين دورية علميّة في مختلف الدول الأوربيّة وأمريكا الشمالية وأستراليا والهند واليابان منها: المجلّة الإفريقية *(La Revue Africaine)* ومجلة العالم الإسلامي *(La Revue du Monde Musulman)* صدرت ما بين 1906-1926 ثم عوّضتها مجلة الدراسات الإسلامية

(La Revue des Etudes Islamiques) ومجلة أرابيكا *(Arabica)* ومجلة الدّراسات الإسلامية *(Studia Islamica)* ...

عني المستشرقون بكلّ المجالات في الحضارة العربية الاسلامية ونكتفي بذكر أشهر أعمالهم في مجال التاريخ :

* المصادر :

- نشر وترجمة "السلوك لمعرفة دول الملوك" للمقريزي (1837- 1845)

- نشر وترجمة "مقدمة" ابن خلدون في ثلاثة مجلدات (1872).

- نشر وترجمة مقدمة "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي (1904)

- نشر وترجمة مختارات من "تاريخ فتح الأندلس" لابن القوطية (1889)

- نشر وترجمة "الخطط" للمقريزي (1895- 1927) في سبعة أجزاء.

- نشر وترجمة "مروج الذهب" للمسعودي في تسعة مجلدات (1861- 1877).

- نشر وترجمة "فتوح افريقية والأندلس" لابن عبد الحكم (1931 - 1939)

* الدراسات التاريخية :

- خلاصة تاريخ العرب (J.J.Sédillot) ترجمه الى العربية عادل زعيتر تحت عنوان تاريخ العرب العام.

- تاريخ بني الأحمر ملوك غرناطة (G.Demonbynes) باريس 1898.

- حياة الحجاج بن يوسف الثقفي، باريس 1902، (Barbier).

- سوريا الشمالية في عصر الحروب الصليبيّة، باريس 1940 (C.Cahen)

- تاريخ اسبانيا الاسلامية، 3 مجلدات، باريس 1950- 1953 (L.Provençal). ولنفس المؤرخ:

- الحضارة العربية في اسبانيا، القاهرة 1938.

- التاريخ السياسي لاسبانيا في عهد الخلافة، 1950

- لسبانيا المسلمة في القرن العاشر، باريس 1932.

- حلب، باريس 1942 (Sauvaget)

- الحفصيون، باريس 1940- 1947 (R. Brunschvig)

- الفنّ الاسباني- المغربي من أصوله الى القرن الثالث عشر، باريس 1932 (H.Terrasse)

- فنّ العمارة الاسلامية في الغرب، 1954 (G. Marçais)

- الوزارة العباسية (D.Sourdel)

إلاّ أنّ هذا الإستشراق الكلاسيكي يشكو حاليا من أزمة حادة ترجع إلى عدّة أسباب من بينها حركات التّحرير التي شهدتها الدّول العربية المستعمرة وقيام الجامعات بها وتكوين الباحثين الوطنيين فتقلصت بذلك مجالات البحوث الإستشراقية وظهرت مع حركات الإستقلال ردود فعل ضد الإستشراق ذهبت بالبعض إلى التشكيك في نوايا المستشرقين وأعمالهم (أمثال أحمد فارس الشدياق - شكيب أرسلان - مالك بن نبي...)، في حين كان للبعض الآخر نظرة تمجيدية لأعمال المستشرقين (أمثال محمد كردعلي - صلاح الدين المنجّد...). وكان لفريق ثالث محاولات توفيقية بين الموقفين السابقين المتباينين إذ يرى أنّ الإستشراق ظاهرة تاريخية لا غير وأن

استمرارنا على إعطاء أهميّة للإستشراق كظاهرة للسيطرة الفكرية والثقافية للغرب يعني عدم التحرّر بعد من عقدة التبعيّة. لكن رغم ذلك يجب ألا يحكم بالإعدام على رجال كانوا علماء عصرهم وبحثوا حسب مناهج البحث التي كانت سائدة آنذاك لأنّ ذلك لا يخدم الحقيقة العلمية (موقف محمد أركون).

الإتجاهات الحديثة

ظهرت البنيوية في ذروة الاهتمام بالدراسات اللغوية كمشروع نقدي منذ بداية هذا القرن يهدف الى تحقيق علمية النقد الأدبي، وهو الهدف الذي ظلّ يرواغ نقاد الأدب لفترة طويلة لدارسة مادة هي بالدرجة الأولى غير علمية ولا تخضع لمقاييس المذهب التجريبي. ويرتكز المشروع البنوي على النظر في القوانين والأنساق الداخلية للنصّ الآدبي متحديا بذلك المفاهيم التقلدية التي تبناها النقد لفترة طويلة مثل القول بأن النص يعبر عن ذات المؤلف.

وفي أواخر الخمسينات بدأ التقارب بين التاريخ والأتنوغرافيا عن طريق الأنتروبولوجية البنيوية "لليفي شتروان الذى أكدّ فيه عن ضرورة معرفة التطور التاريخي للحياة الاجتماعية الحالية. وتبلور هذا التوجه أكثر مع ميشال فوكو في تأليفه "أركيولوجية المعرفة" *(Archéologie du savoir)* ليفرز التاريخ البنوي الذي يعطي للبنية بعدا زمبيا باعتبار أنّ كلّ تكوّن اجتماعي يضمّ عدة بنى مختلفة وأنّ التاريخ ليس بذاكرة البشرية بقدر ما هو "مادية وثائقية" وأنّ على الباحث التميّز بين "مختلف الطبقات الرسوبية" ليدرك كيفية الانتقال من نسق الى آخر خاصة عند دراسة التاريخ الفكري والذهني لمجموعة بشرية ما.

أبهرت البنيويّة بتمشيها وطرق بحثها تقريبا كلّ العلوم الإنسانيّة بما في ذلك التاريخ الذي تأثر بها نسبيا مؤخرا وخاصة بأعمال كلّ من ليفي شتراوس (Levi-Strauss) وميشال فوكو (M. Foucault) وجاك دريدا

(J. Derrida) فشهدت الثمانينات عددا من الدراسات التاريخيّة تمحورت حول تحليل الأسطورة (Analyse du mythe) أو الطقوس الدينيّة أو التحليل البنيويّ للنصوص (Analyse structurale des textes) على المنهج الأنتروبولوجي البنيويّ الذي يدرس الإنسان في بيئته الأحيائيّة والمناخيّة والتقنيّة والعائليّة والإجتماعيّة ...

الا أنّ هيمنة النيوية ما انفكت تتقلص أمام تزايد الطاعنين في جدوى تمشيها ومقارباتها تحت تأثير أعمال جاك دريدا (J.Derrida) المنذر بالحركة المضادة أي بحركة التفكيك في منتصف الستينات والتي تستمد جذورها من فلسفة هيديجر في كتابه عن الكينونة والزمن وقوله أنّ كل نصّ جديد ينشأ عن نصوص سابقة له ويحمل في ثناياه رواسب التراث الثقافي. وتأثرّ البحث التاريخي بتيار ما بعد البنيوية الداعي الى لا نهائية المعنى والتأويل أي التفسير، وهو ما عبّر عنه الأستاذ محمد الطالبي بقوله: "الوثيقة مقدسة والتأويل حرّ " (عيال اللّه، ص 51) ، وهي حرية ضرورية لتقدم الدراسات التاريخية "التي تتجدد بتجدد الأسئلة التي يلقيها المؤرخ على الوثيقة والتأويل الذي يتبع ذلك".

شهدت العشرية الأخيرة على المستوى العالمي اتساع مجالات البحوث التاريخيّة ونمو عدد المؤرّخين وتراكم المنشورات والدراسات مما أفضى على علم التاريخ طابعه الكوني من حيث المحتوى وأدوات البحث.

فبعد أن توجه اهتمام المؤرخين في فترة ما بين الحربين العالميتين وبعدها الى المسائل الإقتصاديّة (أجور – أسعار –مبادلات تجاريّة – انتاج صناعي وفلاحي – أنماط الإنتاج– صراعات اجتماعيّة ...)، تحولت اهتمامات المؤرخين منذ أواخر الخمسينات وخلال الستينات والسبعينات إلى دراسة الفئات الشعبيّة والمهمشين والمجتمعات الريفيّة والعماليّة. فتجلى ذلك بفرنسا في استعمال مصطلح "التاريخ من الأسفل" L'histoire vue d'en bas

وفي انقلترا حول "التاريخ العمـــاليّ" (Labour history) وفـــي الولايـــات المتحدة الأمريكيّة (New left) وفي اليابـــان (Minshushi) وفـــي الـــهند (Subaltern studies) وألمانيا (Alltagsgeschichte)

ركّزت الدراسات في السنوات الأخـــيرة علـــى الظواهـــر الثقافيّـــة وأصناف العقليات في المجتمعات المحليّة. وبما في ذلك المخيال الاجتمـــاعي والتاريخ الذهني اللذين يستعملان كلّ أصناف المصادر بما في ذلك الأحـــلام التي تعتبر جزءا من تاريخ البشر وتساهم في تفسير بعض أعمالهم حســـب فرويد. هذا بالإضافة إلى الإنتعاشة الجديدة للتاريخ السياسيّ وكتابة الـــتراجم مثل كتاب لوقوف (Le Goff) الأخير عن الملك لويس IX (Saint Louis)، أو كتابه عن القديس فرنسوا دازيز أو معجمه عن أروبا في القرون الوسطى الذي أصدره بالاشتراك مع شميت فـــي أواخـــر 1999. أو ترجمـــة الـــدوق Charles Le Téméraire بقلم المؤرخ J.P Soisson . في حيـــن صـــرف بعض المؤرّخين اهتمامهم الى التاريخ الآني أو ما اصطلح علـــى تسـميته تاريخ زمن الحاضر (Histoire du temps présent). الذي ظلّ الى وقـــت قريب من مجالات الصحافة وان اقتصرت وظيفة الصحافي علـــى تجميـــع المعلومات وترتيبها في حين يوكل تحليلها ونقدها الى المؤرخ.

فمنذ الثمانينات أصبح تاريخ زمن الحاضر من اهتمامات المؤرخيـــن ولا أدّل على ذلك من انشاء "معهد تاريخ زمن الحاضر" ببـاريس (Institut d'Histoire du temps Présent) (I.H.T.P) في سنة 1978.

ويعتمد هذا الصنف من الكتابة التاريخية أساســـا علـــى الشـــهادات الشفوية لشهود عيان مع ما يتضمن ذلك من مخاطر للمؤرخ الساعي دومـــا الى بلوغ الحقيقة والموضوعية ولو كانت نسبية وغاية لا تـــدرك وبالتـــالي تستوجب من مؤرخ زمن الحاضر الحذر واليقظة. فشاهد العيـــان يحـــاول فرض رأيه وأحكامه على أحداث عاشها أو شارك فيها شـــخصيا أو ســـمع

عنها، كل" ذلك بالاعتماد على الذاكرة التي قد تخونّه أحيانـــا. وكثـــيرا مـــا ينتصب شاهد العيان مدافعا عما يعتبره "الحقيقـــة التاريخيـــة" لمـــا يرويـــه، وبالتالي يريد تبليغ ذلك الى الغير - أي الى المؤرخ والقارىء - وعند ذلـــك تصبح الشهادة خطا بامهيكلا ومتماسكا.

أما على مستوى العالم العربي فقد تميّزت الكتابـــة التاريخيـــة منـــذ الحرب العالمية الثانية بالإتّجاهات الكبرى التالية:

- الإتّجاه التقليدي الأصولي: ركّز كتاباته على الجوانب اللامعة من تاريخ الدول الإسلامية. ويصرّ أتباع هذا الإتجـــاه علـــى الإعتقـــاد القـــوي بانبعاث قوى الإسلام من جديد لتحقيق آمال "الأمة الإسلامية"

- الإتجاه الوطني: أولى اهتماما خاصا إلى فترة ما قبل الإسلام فـــي تواريخ الأقطار الإسلامية كتاريخ فراعنة مصر وسريانية الهلال الخصيـــب وبابلية العراق وسبائية اليمن وقرطاجية تونس... هذا إلـــى جـــانب الفـــترة الإسلامية التي بقيت في صدارة تاريخ تلك الأقطار.

- الإتجاه القومي: وهو اتجاه مناصر للعروبة ويؤكد علـــى "وحـــدة التاريخ العربي" ووحدة الشعب العربي الذي صنع ذلك التاريخ ويطمح إلـــى تحقيق تلك الوحدة. وقد تشكّل الخطاب القومي العربي فـــي التـــاريخ بعـــد صراع فكري طويل ضد الهيمنة الإستعمارية والتيارات الفكرية التي ولدتـــها على الساحة العربية منذ القرن XIX حتى فترة ما بعـــد الحـــرب العالميـــة الثانية. وقد اعتبر التاريخ إلى جانب اللغة والدين من أسس الدولة القوميـــة ومن القوى الدافعة والفاعلة في تحقيق الوحدة. كما دعى أنصار هذا الإتجـــاه إلى إعادة كتابة التاريخ العربي من منطلقات قومية.

- الإتجاه الماركسي: ويمكن التمييز بين جيلين مـــن الماركســـيين العرب: الماركسيون العرب الأوائل في العشرينات وما بعدهـــا والمتـــأثرين جدا بالدوائر الماركسية الأروبية والسوفياتية. أما الجيل الثاني فقد برز غـــداة حركات التحرر في البلدان العربية وحصولـــها علـــى اســـتقلالها وتخـــرج

المؤرخين من الجامعات العربية بداية من الخمسينات (نذكـــر منـــهم عبـــد العزيز الدوري – محمود إسماعيل – سمير أمين...).

هذا وتكاد تجمع كلّ هذه الإتجاهات على ضـــرورة إعـــادة كتابـــة التاريخ وتضفي أهمية كبيرة على إيجابية الحدث التاريخي. فالهاجس الـــذي يشغل المؤرخ العربي هو البحث عن موقع فـــي التـــاريخ العـــالمي وعـــن مشروع حضاري عربي يلحق المجتمع العربي بركاب الحضارة المعـــاصرة مع الدعوة الملحّة لتحرير التـــاريخ العربـــي مـــن النزعـــة الإســـتعمارية (décoloniser l'histoire)

المراجـــع:

– بارنز (هـ)، *تأريخ الكتابة التاريخيّة*، ترجمة محمد عبد الرحمان برج، القاهرة، 1987. (جزءان)

– عزيز العظمة، *الكتابة التاريخيّة والمعرفة التاريخيّة*، دار الطليعـة للطباعة والنشر، بيروت 1983.

– السيد ولد أباه، *التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو*، دار المنتخـــب العربي للدراسات، بيروت 1994.

– سعيد (أ)، *الإستشراق*، ترجمة كمال أبو ديب، بيروت 1981.

– الفكر العربي، عدد 31–32، جانفي–جوان 1983.

- Bourdé (G), Martin (A), *Les écoles historiques*, Paris, éd. Le Seuil, 1983.

- Rodinson (M), *Problèmes de l'orientalisme islamisant*, Cahiers de Jussieu, Paris 1976.

- Tulard (J), Thuiller (G), *Les écoles historiques*, P.U.F, Coll. « Que sais-je ? », 1990.

- Vilar (P), *Une histoire en construction*, Paris 1982

- Histoire et structure, *Annales E.S.C*, 1971, numéro spécial.

VI. التاريـــخ وتداخل العلوم

« ... Des méthodes nouvelles permettent de lire des documents déja connus avec des yeux nouveaux... »

(J. Le Goff)

اتسم التطوّر العام للعلوم منذ السبعينات بتداخلها، فلـــم يعـد اليـــوم بالإمكان الحديث عن علم منعزل عن بقية العلوم الأخرى. فعلى سبيل المثال لا الحصر قد اكتسحت الإعلاميّة جلّ مجالات العلوم الإنسانيّة والصحيحـــة على حدّ السواء. ومن متناقضات يومنا الحاضر أنّ التخصّـــص لـــم ينفـك يكتسح كلّ المجالات في حين لا يستطيع أي علم من العلوم الإكتفـــاء بذاتـــه كما قال بعضهم:

"*La spécialisation ne cesse de gagner du terrain..., alors qu'en réalité aucune science ne se suffit à elle-même*". (P. Vilar).

لم يشذ التاريخ عن هذا الإتجاه العام فاحتاج المؤرّخ إلـــى أن يلـمّ بعلوم شتى وأن ينسجم مع العلوم الأخرى وأن تكون لـــه "مـآخذ متعـددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ وينكبّـان به عن المزلات والمغالط ..." كما قال ابن خلدون منذ القرن الرابع عشـــر ميلادي (ابن خلدون، *المقدمة*، ص 12).

شكلّ تداخل التاريخ والعلوم الأخرى مظهرا من مظاهر تفتح المـادة على "العلوم الرديفية" (sciences auxiliaires) وهو توجه دعى اليه أنصـار مدرسة الحوليات منذ الثلاثيينات ولكن لم يتحقق الا مع تقدم العلوم الانســانية والاجتماعية بعد الحرب العالمية الثانية في وقت اعتقد فيه كثير من البـاحثين

امكانية ايجاد لغة واشكالية مشتركة لكل العلـوم الانسـانية. وكـان هـدف الداعين لهذا التعاون بين التاريخ والعلوم الأخرى تعزيز تكوين طلبة التاريخ وتنويعه من جهة وتجديد مضمون الدراسات التاريخية من جهة أخرى. فـهل تحققت تلك الأهداف؟ هل غنم التاريخ من ذلك التداخل أم خسر منه؟

التـاريخ وعلم الآثـار

أن لفظ أركيولوجيا الذي تبنته تقريبا كل اللغات- يعني من الوجهـة الفلولوجية علم الأشياء القديمة (أركيو: قديم- لوغوس: علـم) وفـي اللغـة اليونانية هو دراسة تاريخ الحضارات القديمة خاصة الاغريقية والرومانيـة والمعروفة بالحضارات الكلاسيكية. الا أن هذا المفهوم الضيق قد تم تجـاوزه ليشمل علم الآثار دراسة كل مخلفات الانسان والبيئة التي عاش فيـها ومـا يترتب عن ذلك من تفاعل بينهما. وباتساع المفهوم اتسعت مجالات البحـوث الأثرية وتنوعت وتطـورت طـرق الاستكشـاف (Prospection) الـبري والبحري والجوي. كما تعددت الحفريات الأثرية على مستوى العالم بأكملـه ونشرت تقاريرهـا (Compte- rendu) مصحوبـة بالرسـوم أو الصـور (planche) في الدوريات المختصة.

لئن حافظ علم الآثار- رغم تطوره التقنـي والابسـتيملوجي علـى وظائفه الأصلية (البحث عن مخلفات الانسان)، فان هذا العلم ما انفك يسـعى للتخلص من طابعه الوصفي ويطمح أن يكون علما تاريخيا يسـاهم بقسـط كبير في اعادة بناء مجتمعات الماضي، وبذلك يلتقي علم الآثار مع التـاريخ ويعتبر من أهم العلوم الرديفه له.

إن علاقة التاريخ بعلم الآثار وثيقة جدا وخاصة عند دراسة بعـض الحقب التاريخية مثل ما قبل التاريخ والعصور القديمة والقرون الوسـطى، بل إن في بعض الأحيان يتطابق التاريخ مع علم الآثار كمـا هـو الشـأن بالنسبة إلى ما قبل التاريخ الذي تنعدم به الكتابة وتشـكل فيـه الحفريـات

الأثرية مصدرنا الوحيد لمعرفة انسان تلك الحقبة التاريخية وبعض مظـــاهر حياته اليومية.

لم يعد الآثار اليوم ما كان عليه بالأمس أي علــم يــهتم بـــالقديم أو بالأحياء (دراسة الأحافير)، بل علم الأنساق الثقافية بالمفهوم الأنــتروبولوجي للثقافة. فمجال الدراسة الأثرية شاسع ومتنوع في الزمن (آثار قديمة، حديثة، وسيطة..) والمكان (اغريقية، رومانية، مصريـــة...) والفــروع (نميــات- خزفيات- نقائش- برديات....).

لقد تطور علم الآثـــار الجديـد (Archéologie Nouvelle) علـــى مستوى الطرق مع المحافظة على بعض التقنيات القديمة كالدراسة الطبقيـــة (stratigraphie) والاستكشاف الجـــوي والتـــأريخ بواســطة الفحــم 14... وأصبح له اليوم "وظيفة بالأساس علاجية" على حد قول بعضهم.

(A. Schnapp, « L'archéologie », in *Faire de l'histoire*, II, p.30)

لهذا العلم فروع عديدة منها: علم النقـــائش (Epigraphie) وعلــم المسكوكات أو النميات (Numismatique)... فـــالأول يعـــالج النصـــوص القديمة المنقوشة على الحجارة أو غيرها من المواد بجميع اللغات وهي توفر معلومات قيمة قد لا توفرها أحيانا التآليف التاريخية أو الأدبيـــة. علـــى أن هناك اهتمام خاص بالنقائش الاغريقية واللاتينية لتوفرها أكثر مـــن غيرهـــا بأعداد هامة ومنتظمة. وتشمل خاصة نقائش نذريـــة (ex- voto) ونقـــائش جنائزية (épitaphe) وتذكارية... ويشترط في عالم النقائش المعرفة الدقيقـــة بكل أنواع الخطوط والكتابات في مجال اختصاصه. وينشر ما عثر عليه من نقائش في الدوريات المختصة بالدراسات الأثرية أو في مجـــاميع (corpus) خاصة بالنقائش. (انظر عن ذلـــك فصـــل Epigraphie فـــي الموســـوعة *Encyclopaedia Universalis*، مجلد 8، ص 554 – 558).

أمّا علم المسكوكات أو النميات فيـــهتمّ بمعالجـــة النقـــود القديمـــة ودراستها من حيث الشكل والقيمة والوزن ومادة الصنع... وهـــي بالتّـــالي هامة في دراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وفي تأريخ نتائج حفريات عالم الآثار. ويتفرع هذا العلم بدوره إلى عدّة أقسام حسب الحقب التاريخيـــة: نقود قديمة، وسيطة، حديثة، وحسب المناطق: نقود شرقية، غربية، شـــرق أدنية (انظر فصل Numismatique في موسوعة *E. Universalis*، مجلـــد 18، ص 632 - 637).

ومن أهم فروع علم الآثار هناك الخزفيات. فالانسان قـــد اســـتعمل الأواني الخزفية منذ أقدم العصور في حياته اليومية وفنونه وللتعبـــير عـــن معتقداته عن طريق الرسم على المشربيات عند بعض الشعوب كـــالاغريق القدامى.

ومن فروع علـــم الآثـــار أيضـــا مـــا يعـــرف بـــالبروز بغرافيـــا (Prosopographie) أي ضبط تراجم لأفراد ممثلين لمجموعات معيّنة مـــن النخبة (رجال السياسة - إداريون - عسكريون...). وقـــد اســـتعمل هـــذا الصنف من الدراسات خاصة في التاريخ الروماني بالاعتماد على المصـــادر الأدبية. أنظر على سبيل المثال:

(A. Chastagnol, «La prosopographie, méthode de recherche sur l'histoire du Bas-Empire», in *Annales ESC, 1970*)

"فالأركيولوجيا الجديدة" علم متعدد الاختصاصات يستعين بجملة مـــن العلوم الأخرى (الفيلولوجيا - الجيولوجيا - الأتنوغرافيا - الأنتروبولوجيـــا - الجغرافيا - الاعلامية...). وقد غنم علم الآثار من التقدم الـــذي حققتـــه علوم أخـــرى كالكيميـــاء والأنتروبولوجيـــا والجيولوجيـــا والأتنوغرافيـــا والإعلاميّة ... هذا بالإضافة إلى التطوّر المطرد لتقنيات الإستكشاف الأثريّ سواء البريّ منها أو البحريّ أو الجويّ.

لا يكتفي المؤرّخ باستغلال نتائج الحفريات الأثريّة البريّة بل يستغل أيضا ما توصلت إليه الحفريات البحريّة بحثا عن حطام السفن الغارقة والمواني المندثرة لدراسة المبادلات التجاريّة وتقنيات صناعة السفن وطاقات حمولتها في العصور القديمة أو الوسيطة (على سبيل المثال ما توصلت إليه الحفريات البحريّة في عرض سواحل المهديّة منذ 1908 الى ما بعد الحرب العالميّة الثانيّة – الحفريات في عرض الإسكندريّة بحثا عن بقايا منارتها الشهيرة ...). وقد غنمت الأركيولوجيا في الأعماق من تطور تقنيات الغوص التي ما أنفكت تتقدم منذ أواخر الحرب العالمية الثانية رغم أنّ العديد من الاكتشافات تتمّ صدفة عن طريق الصيادين أو الغواصين بحثا عن الاسفنج أو المرجان... هذا وتختلف حالة البقايا التي يعثر عليها من سفينة إلى أخرى حسب الظروف التي تمّ فيها الغرق وحسب نوعيّة قاع البحر (رمليّة أو صخريّة). وعموما فانّ علماء الآثار يساهمون بقسط كبير في تجدد التاريخ بفضل اكتشافاتهم الأثرية.

التاريخ والأنتروبولوجيا

يعود لفظ انتروبولوجيا الى أصل يوناني مركب من قسمين: انتوبوس (anthropos) بمعنى انسان ولوغوس (logos) علم، فهو اذن علم الانسان على مختلف الأصعدة انطلاقا من الجانب الفيزيولوجي الى الفكري أو الرمزي، لذلك عرفه بعضهم على "أنّه التاريخ الطبيعي للجنس البشري". ودأب الأنتروبولوجيون على تقسيم هذا العلم الى فرعين كبيرين هما: الأنتروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيائية: تدرس خاصة البنية الخارجية للانسان أو التركيبة البيولوجية للانسان والانتروبولوجيا الثقافية: تدرس الانتاجات الفكرية للمجموعات البشرية وسلوكاتهم وعلاقتهم بالمحيط الذي يعيشون فيه. كلّ ذلك عبر الأحقاب التاريخية ومع مراعاة اختلاف الأزمنة والأمكنة التي وجد فيها العنصر البشري المدروس.

لقد ظلت القطيعة والهوة واسعة بين الأنتروبولوجيا والتاريخ حتى الخمسينات. وسبب ذلك هو موقف الأنتروبولوجيين الأوائل الغربيين من الشعوب والحضارات التقليديّة (عربيّة - صينية - تركية...) التي كانت القوى الإستعمارية تسعى إلى اخضاعها واحتلالها، فقد رأوا فيها شعوبا "متوحشة لا تاريخ لها" أي خارجة عن نطاق الخطاب التاريخيّ الأوربيّ.

بدأ منذ الستينات التقارب بين الأنتروبولوجيا والتاريخ بصفة جليّة وملحوظة وذلك نتيجة التجديد الذي عرفته كلّ من المادتين على حدّ السواء. فقد تخلت الأنتروبولوجيا عن تصنيفها التقليدي للمجتمعات بين ما هو "بدائيّ وبدون تاريخ" (Société primitive et sans histoire) وما هو "مركب وله تاريخ" (Société complexe et à histoire) وأدركت البعد التاريخي لهذه المجتمعات "المتوحشة" في الحاضر والماضي وأيقنت أن لفهم حاضر هذه الشعوب لا بد من معرفة ماضيها أي تاريخها وذاكرتها الجماعيّة وتطورها لدراسة البنية والوظائف. كما بينت أن الظواهر التي كانت تعتبر ظواهر طبيعية انما هي ظواهر ثقافية على الأنتربولوجي فهم الخصوصيات الثقافية للمجتمع المدروس. كما تجدّدت الأنتروبولوجيا بإتساع نطاق أبحاثها لتشمل المجتمعات الأوربيّة نفسها خاصّة الريفيّة منها والفئات المهمّشة والأقليات في المجتمعات الغربيّة.

أمّا تجديد التاريخ فترجع جذوره إلى الثلاثينات وإلى الدور الهام الذي لعبته مدرسة الحوليات، فتخلّت الدّراسات التاريخيّة تدريجيّا عن التاريخ الوقائعي وتاريخ العظماء من الدول والأشخاص لتهتمّ بالعامة والظواهر الإجتماعية على المدى الطويل وبدراسة بنى المجتمعات والعائلة والبيئة والحياة الجنسيّة والموت... وقد تدعم هذا التوجه الجديد تحت تأثير الدراسات الأنتروبولوجية التي لم تنفك مجالات أبحاثها تتسع منذ الخمسينات لتشمل الثقافة (الأنتروبولوجيا الثقافيّة)، الإقتصاد (الأنتروبولوجيا

الإقتصاديّة) السياسة (الأنتروبولوجيا السياسيّة)، العقليـــات (الأنتروبولوجيـــا الرمزيّة)، القضاء (الأنتروبولوجيا القانونيّة)...

أثّرت الأنتروبولوجيا في البحوث التاريخيّة فسعت الدراسات الحديثة منها لاستغلال طرق البحث الأنتروبولوجيّ وتطبيقها فـــي الأنتروبولوجيـــا التاريخيّة (Anthropologie historique). ففتحت بذلـــك الأنتروبولوجيـــا مجالات جديدة أمام البحث التاريخيّ الذي أصبح يهتم بالبنى الأسريّة وأنمـــاط العيش في مختلف المجتمعات والمعتقدات والفئات المهمّشة ... وقد تركّـــزت الأبحاث التاريخية حسب التمشي الأنـــتروبولوجي حـــول أربعـــة محـــاور رئيسية:

– أبحاث تتّصل بالأنتروبولوجيا الماديّةوالبيولوجية : دراسة الجســـد – المواقف من الحياة والموت – الحياة الجنسيّة – العادات الغذائية...

– أبحاث تتّصل بالأنتروبولوجيا الإقتصاديّة: المواقف الإقتصاديّـــة وتحوّلاتها...

– أبحاث تتّصل بالأنتروبولوجيا الإجتماعيّة تحت تأثير الدراســـات البنيوية لليفي شتروس : العائلة والروابط العائلية...

– أبحاث تتّصل بالأنتروبولوجيا الثقافيـــة والسياســـية: المعتقـــدات الشعبية – الطقوس الدينية – الفلكلور – الأساطير...

غنم إذن التاريخ مـــن دراســـات الأنتروبولوجيـــا علـــى مســـتوى الموضوعات وطرق البحث الميدانيّ خاصّة واستغلال المصادر الشفويّة التي لم تنل حظّها إلا مؤخرا بعد أن أهملها المؤرخون وقتا طويلا. وذلك علـــى غرار ما فعله كلود ليفي شتراوس عند دراسته للأساطير. تحتل الأســـطورة مكانة كبيرة في تاريخ الشعوب والحضارات وتتناقلـــها الأجيـــال بالروايـــة الشفوية، فهي تعطينا فكرة عن العمل العفوي للذهن البشـــري. وقـــد درس

شتروس ما يفوق 800 أسطورة من أساطير هنود أمريكا وأثبت أنّ هذه الأساطير تتصل ببعضها البعض بشكل وثيق وأنها محكمة الحبك وأنّ هنالك نظاما من المطابقات بين عناصر الأسطورة وبذلك تمكّن دراسة الأساطير من القاء الضوء على جوانب من الذهن البشري مازلنا نجهل عنه الكثير في يومنا الحاضر.

ساهمت الأنتروبولوجيا بمختلف فروعها (اجتماعيّة، سياسيّة، ثقافيّة، تاريخيّة ...) في توسيع مجالات دراسات العلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة شأنها في ذلك شأن علم الإجتماع والجغرافيا ... وقد تمّ ذلك في ظرفيّة تاريخيّة معيّنة اتسمت بتفوّق النزعة الإستعماريّة في العالم الغربيّ المصنّع، فأسدى أنذاك الأنتروبولوجيون خدمات جليلة لرجالات السياسة في القرن XIX. كما تكتسي تقارير الأنتروبولوجييّن أهميّة كبيرة لدى المؤرخين والمهتمين بالأنتروبولوجيا التاريخيّة إذ تمثل المصدر معلوماتهم الرئيسيّ لمعلوماتهم عن الظاهرة الإستعماريّة وتطوّرها في تلك الفترة.

التاريخ والعلوم الإقتصاديّة

لقد كان للمدرسة الماركسيّة الأثر الكبير في توجيه اهتمام المؤرخين إلى المسائل الإقتصاديّة بعد أن بيّن كارل ماركس العلاقة القائمة بين التحوّلات التقنيّة وتاريخها ونتائجها على الصعيد الإجتماعيّ والسياسيّ.

لقد فتح التمشى الماركسي مجالات بحث شاسعة للمؤرخين تتصل بمختلف الأنشطة الاقتصادية والانتاج والمبادلات التجارية خلال الحقب التاريخية وان كان من الصعب جدّا اعتماد وثائق احصائية عند دراسة هذه المسائل في العصور القديمة أو الوسيطة وحتى الحديثة في عديد البلدان. فتوفر السلاسل الاحصائية على امتداد فترة طويلة يمكّن المؤرخ من الوقوف على تطور الظاهرة المدروسة خاصة في الفترة المعاصرة بالبلدان المتقدمة حيث حفظ الأرشيف متجذر في تقاليد الادارة العمومية والخاصة. على أنّ

الأرقام وحدها غير كافية ولا تعبّر عن الحركات الاجتماعية، لذا وجـــب أن لا يتحّول التاريخ الاقتصادي الى اقتصاد احصائي (économétrie) لا يعير أي اهتمام للتاريخ الاقتصادي في أبسط أشكاله.

فالمؤرّخ مدعو إلى أن يلمّ على الأقلّ بتاريخ التحوّلات الإقتصاديّـــة العالميّة الكبرى وبالأوضاع الإقتصاديّة للعصر أو الفترة التاريخيّـــة التـــي يدرسها أو يرغب في الكتابة عنها. فليـــس بإمكـــان مثـــلا دارس الظـــاهرة الإستعماريّة بأوربا في القرن XIX جهل الثـــورة الصناعيّـــة والتحـــوّلات الجذريّة التي شهدها النظام الرأسماليّ.

لعبت مدرسة الحوليّات تحت تأثير الأزمة الاقتصادية العالمية لســنة 1929 دورا هاما في توجيه اهتمام المؤرّخين نحو المســـائل الإقتصاديّـــة : قضايا الإنتاج والمبادلات ومختلف الأنشطة الإقتصاديّة وتـــاريخ الأريـــاف (انظر على سبيل المثال دراسة مارك بلوك عن الريف الفرنسي:

Bloch (M), *Les caractères originaux de l'histoire rurale française du XI au XVIIIe siècle*. A. Colin, Paris, 2 tomes.

ظهر التاريخ الاقتصادي الحديث ما بين 1929 – 1932 مـــع تلـــك الدراسات المتعلّقة بالأسعار في مجلة "الحوليات" في إطار التـــاريخ الكمـــي لأبحـــاث ســـيميون (Simiand) ولا بـــروس (Labrousse) وبـــــرودال (Braudel)... وتيار "التـــاريخ الاقتصـــادي الجديـــد (New Economic History) بالولايات المتحدة الأمريكية مع أبحاث كوزناتس (Kuznets) في أوائل الخمسينات ليشهد هذا التاريخ الاقتصادي الجديد بداية من الســـبعينات عودة إلى التاريخ السلسلي (Histoire sérielle) مـــع الاســـتغلال المكثـــف للاعلامية فـــي أبحـــاث فـــوري (Furet) ، لادوري (Le Roy Ladurie) وغيرهما ...

يغنم المؤرخ ودارس الظواهر الاقتصادية من التطور المطرد والسريع للاعلامية التي تعينهم كثيرا في بحوثهم وحساباتهم المعقدة وخزن معلوماتهم المتدفقة وتحويلها الى رسوم بيانية أوخرائط دقيقة جدا...

لم ينكف التاريخ الاقتصادي يطور تقنياته وطرق مقارباته للمسائل الاقتصادية لإيمان أصحابه العميق أن للعوامل الإقتصادية الأثر البالغ في تفسير الأحداث التاريخية دون أن تكون العامل الوحيد، ولكنها تساهم الى جانب عوامل أخرى في تشكل الحدث وتفسيره.

التاريخ والديمغرافيا

يعني علم الديمغرافيا بدراسة السكان من حيث المكونات والتطور والخاصيات العامة بالإعتماد أساسا على المعطيات الكمية. وقد ظهر لفظ ديمغرافيا (démographie) لأول مرة سنة 1855 مع عالم الطبيعيات والديمغرافي الفرنسي قيار (Guillard) (1799-1876) وارتبط بالحساب والإحصاء. والواقع أن القضايا الديمغرافية ما انفكت تشغل بال المؤرخين والإقتصاديين ورجال السياسة معا خاصة في فترات الأزمات وعلى ضوء ما يترائى في أفق الألفية الثالثة. فالإشكالية المطروحة اليوم لم تعد قضية كم بل تغيرت نوعيتها لتصبح كيفية وأخلاقية تتعلق بمدى قدرة البشرية على تنظيم الكون وإعادة تعريف العلاقات السياسية والإقتصادية فيما بينها لضمان عيش العشرة مليارات من البشر مع احترام المحيط والبيئة والثقافات لمختلف الشعوب والأجناس.

أفرز تعاون المؤرخين والديمغرافيين على إثر نهاية الحرب العالمية الثانية ظهور الديمغرافيا التاريخية. وقد أدركوا مدى أهمية العامل الديمغرافي في تفسير بعض أحداث الماضي.

يستوجب استغلال المعطيات الديمغرافية توفر سلاسل احصائية، لكنها نادرة أو منعدمة أحيانا في العصور القديمة أو الوسيطة وحتى الحديثة في عديد البلدان التي لم تول أهمية إلى صيانة الأرشيف وحفظه. فلئن عرفت بعض الدول الأوربية الإحصائيات منذ القرن XVIII، فإن العديد من الدول الآسياوية والإفريقية لم تعرف ذلك إلا في أواخر القرن XIX أو القرن XX.

تعتمد الديمغرافيا التاريخية– بكونها شكلا من أشكال التاريخ الكمي– أساسا على عنصر متكرر داخل سلسلة متجانسة من الأحداث أو الظواهر القابلة للمقارنة فيما بينها في فترة زمنية معينة. فهي على حد قول بيار شونو (P.Chaunu): "ليست أرقاما فقط، بل هي اعادة لبعد أكثر عمقا للإنسان"

(P. Chaunu, *l'histoire sérielle. Bilan et perspectives*. A. Colin, Paris 1978, p. 131)

لقد أولت مدرسة الحوليات أهمية لدراسة المسائل الديمغرافية وأبرزت العلاقة بين المجاعات والحوادث الديمغرافية: إنخفاض الإنتاج الفلاحي يؤدي إلى ارتفاع الأسعار الذي بدوره يتسبب في نقص الإستهلاك وبالتالي في المجاعة التي ينتج عنها ارتفاع في الوفيات وانخفاض في الولادات والتزاوج.

اسفرت مجهودات مؤرخي الحوليات عن تأسيس "جمعية الديمغرافيا التاريخية" في 1963 واصدار دورية مختصة تحت عنوان "حوليات الديمغرافيا التاريخية" *(Annales de démographie historique)*.

احتلت خلال السبعينات الديمغرافيا التاريخية مكانة هامة في الأطروحات عن التاريخ الإجتماعي بالجامعات الفرنسية والأنجليزية والكندية والأمريكية ... وتمحورت الدراسات خاصة عن العائلة والحياة

الأسريّة والسلوكات الإجتماعيّة والفئات الإجتماعيّة المهمّشة ... (نذكر منها على سبيل المثال: "الحياة الزوجية قبل الثورة الفرنسية" للمؤرخ الفرنسي المعاصر F. Lebrun). وظلّت العائلة إلى أواخر السبعينات محور اهتمام الديمغرافيا التاريخية المعتمدة بالأساس على استغلال سجلات الأبرشيات (registres paroissiaux). وفي السنوات الأخيرة تركّزت الدراسات على تتبع سير الأفراد ومسيرتهم المهنية وحركيتهم الإجتماعية دون إهمال تاريخ العائلة الذي أصبح ينظر إليه من زوايا مختلفة وبمقاربات ديمغرافية وانتروبولوجية تولي أهمية إلى مختلف الأجيال المكوّنة للعائلة.

كما أولت الديمغرافية التاريخية عناية إلى قضايا الصحة وتاريخ الأوبئة والأمراض الذي لازال في حاجة إلى مزيد المعرفة والدراسة لفهم آليات وانعكاسات وعوامل انتشار بعض الأمراض وتطورها خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة في الأقطار التي تتوفر فيها معطيات احصائية كافية ومرضية. وعموما ساهمت هاته الموضوعات الطريفة في إثراء الديمغرافيا التاريخية وبالتالي في تجدد التاريخ خاصة التاريخ الإجتماعي الذي غنم كثيرا من هاته المقاربات الجديدة.

تشكل الديمغرافيا التاريخيّة اليوم مجال بحث دقيق لدى كلّ من المؤرخين والديمغرافيين على حدّ السواء. وبالرغم من اعتمادها على مصادر عادة غير متتابعة في الزمن، فإن التاريخ الإجتماعي كان أوّل مستفيد من تطوّر بحوث الديمغرافيا التاريخية ونتائجها (دراسة الفئات الشعبية – البنية العائلية – الحرف الصغرى...). كما ساهمت تلك البحوث في تدعيم تاريخ العقليات وإكسابه أسسا متينة.

توفّر الديمغرافيا التاريخيّة معطيات عامّة عن التوزيع الإجتماعيّ والحرفيّ وتطوّره خلال فترة زمنيّة معيّنة، كما توفّر معطيات عن الوضع

الصحيّ العام والأزمات الناتجة عن المجاعات والأوبئة والحروب وغيرها من الكوارث.

ساهمت كل هذه الإضافات الديمغرافيّة في إثراء دراسات التاريخ الإجتماعيّ التي شهدت خاصّة بعد الحرب العالميّة الثانية تحوّلا على مستوى النتائج والمنهجيّة.

التاريخ والأدب

تعتبر اللغة أكثر ملكات النوع الانساني انسانية على وجه الخصوص، والانسان في سعيه لفهم للغة ومعرفتها، فانه طوال تاريخه الفكري، كان يسعى تماما لمعرفة ذاته بدأ بمحاولة معرفة الأصل الممكن للكلام الانساني وتطوره واللغة في حدّ ذاتها. فتركز علم اللغة في القرن XIX الى حدّ كبير على الدراسة التاريخية للغات الأروبية على أساس أنّ كلّ لغة عبارة عن نتاج لماضيها وهو ما يشكل مضمون ما يعرف بالتاريخ اللغوي أو علم اللغة التاريخي المقارن الذي يهدف الى ضبط الأسر اللغوية (لغات سامية – هندو أوربية– هندو جرمانية ...)

إنّ اللغة كأداة تواصل لم تنفك تتطور، وكذلك مدلول الكلمات يتغيّر ويتطوّر باستمرار، فالألفاظ لها تاريخ، ولذلك فهي تدخل ضمن اهتمامات المؤرخ إذ اللفظ يمثل شاهدا على الحضارة وعلى عقلية مستعمليه، وبالتالي فإنّ الأدب شاهد على ذوق وميولات صاحبه من ناحية وأهل ذلك العصر من ناحية أخرى وهو يدخل في نطاق المختصين بتاريخ الأدب إلى جانب المختصين بتاريخ الفلسفة أو تاريخ الفن أو تاريخ العلوم...

لم ينفك يتزايد الاهتمام بتاريخ علم اللغة من خلال جمعيات مختصة أو دوريات تهتم بقضايا اللغة مثل *Historiographia linguistica*. فاللغة

تندرج ضمن علوم الانسان وهي ككل العلوم الأخرى تنمو من خلال ماضيها وتتأثر بالمحيط الاجتماعي لمعاصريها.

يعتمد التاريخ الإجتماعيّ أيضا على المصادر الأدبيّة. فلا غنى لدارس المجتمع العباسيّ، على سبيل المثال، من الإطلاع على ما ورد في تآليف أدباء ذلك العصر أمثال الجاحظ والمسعودي وابن عبد ربّه وغيرهم... كما لا يمكن لدارس المجتمع الفرنسيّ في القرن XIX التغافل عما ورد في مؤلفات بلزاك (Balzac) وزولا (Zola) وغيرهما. كما لا ينكر أحد قيمة الشعر الجاهليّ كمصدر هامّ من مصادر دراسة المجتمع العربيّ القبليّ قبل الإسلام. كذلك لا غنى لمؤرّخ الحضارات القديمة (يونانيّة – رومانيّة – مصريّة فرعونيّة ...) من معرفة اللغات القديمة والكتابات الهيروغليفيّة أو المسماريّة، فلولا معرفة شمبوليون (Champollion) للغة القبطيّة لما استطاع في القرن التاسع عشر حلّ رموز الكتابة الهيروغليفيّة لمصر الفرعونيّة.

كما يمثل أيضا الأدب سلاحا سياسيا إذا كان ملتزما وهو بذلك يهمّ المؤرخ، فمواقف أصحابه ترمز إلى تيارات فكرية قد تتظافر مع عوامل أخرى (سياسية – إقتصادية – إجتماعية...) لتفسر أحداثا تاريخية هامة (نذكر على سبيل المثال دور فلاسفة عصر الأنوار في قيام الثورة الفرنسية وتهيئة الفكر الثوري والأرضية الملائمة).

لا ينكر أحد الدور الذي تلعبه المعرفة التاريخية في تنمية الخيال الابداعي في الأدب العالمي منذ هومريوس الى اليوم وكذلك في غرس قيم جمالية واثراء العالم الباطني لدارس التاريخ من خلال القيم الثقافية المستوحاة من الماضي البشري (حضارات ومجتمعات) بواسطة دراسة تاريخ الفنون التي تساهم بقسط كبير في ادراك مدى اسهامات الغير في اثراء وعينا الجمالي وتهذيب ذوقنا وكذلك أيضا اسهاماتنا في فنون الغير.

فالإنتاج الأدبيّ – رغم طابعه الخياليّ ونزعة المبالغة فيه – يعتبر مرآة للعصر الذي كتب فيه. لكنّ على المؤرّخ استعمال هذا الصنف من المصادر بشيء من الحذر والحسّ النقديّ مستعينا في ذلك بكتابات النقد الأدبي التي تمكّنه من وضع الانتاج الأدبي في إطاره التاريخي والعام.

ولا شكّ أنّ من أوثق العلاقات بين التاريخ والأدب تلك العلاقة القائمة بين التاريخ والفلسفة والتي جسّمها بعض المؤرخين القدامى أمثال مسكويه (ت 421 هـ/ 1030 م) صاحب " تجارب الأمم" الذي كان في آن واحد فيلسوفا ومؤرّخا، وخاصة ابن خلدون الذي أقحم التاريخ ضمن "العلوم الحكميّة" بقوله : "التاريخ في ظاهره لا يزيد عن اخبار... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعديل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يعدّ في علومها وخليق....". فهذا التفكير والتمشي المنطقي قد تلقاه ابن خلدون عن شيخه الآبلي "شيخ العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكميّة والتعليمية" (ابن خلدون، الرحلة غربا وشرقا، ص 57).

التاريخ والإعلاميّة

شهد استعمال الإعلاميّة في التاريخ قفزة هامة في أوائل السبعينات. وساعدت بعض الدوريّات المختصة في ذلك أمثال:

(Le Médiéviste et l'ordinateur - Computer and the Humanities).

والواقع أنّ التاريخ ككلّ العلوم الإنسانيّة الأخرى قد غنم من تطوّر الإعلاميّة وخدماتها الكثيرة وقدراتها العجيبة على خزن المعلومات بكميّات مهولة ومختلفة جدّا وتحويلها إلى رسوم بيانيّة متنوّعة أو خرائط دقيقة للغاية. كما يساعد الحسوب على القيام بحسابات معقّدة ويسهّل كثيرا عمليّة تحقيق النصوص القديمة وضبط فهارسها بسرعة فائقة فيوفر بذلك الوقت

الكثير للمؤرخين وخاصة للمختصين منهم في الفترة القديمة والوسيطة والمهتمين بتحقيق النصوص (full-text) أو لمؤرخي القرن التاسع عشر الأوربي خاصة حيث تتوفر المعطيات المرقمة. وفي مثل هذه الحالة تصبح الاعلامية علما مساعدا للتاريخ السلسلي (histoire sérielle).

قد علّق الباحثون في السبعينات خاصّة بأمريكا ثم بأوربا آمالا عريضة على خدمات الإعلاميّة، ولكن الواقع أثبت أنّ عمليّا تعترض المؤرخ صعوبات جمّة وأنّه يمكن استغلال الاعلامية بصفة ناجعة في بعض المجالات دون غيرها خاصة في مجال الآثار وتحقيق النصوص وفرز السلاسل الإحصائية.

ففي مجال علم الآثار الذي هو من أهمّ العلوم المساعدة للتاريخ فقد اقتحمته الإعلاميّة منذ أوائل الثمانينات في مستوى الإحصائيات وتكوين "بنوك المعلومات" في مرحلة أولى، ثمّ منذ 1985 في مستوى معالجة الصور عند الإستكشاف الجوي بواسطة الأقمار الصناعية أو الطيران او عند التحليل للبنية التحتيّة أو للرسوم الحائطيّة، وكذلك في مستوى وضع الرسوم البيانيّة.

كما يستغل بعض المؤرخين دفاتر عدول الاشهاد بواسطة الاعلامية خاصة اذا ما توفرت هذه الدفاتر بصفة منتظمة ومسترسلة. فهي تضمّ عقود زواج أو بيع أو شراء أو كراء أو مغارسة أو شراكة وبالتالي فهي قيمّة في دراسة المجتمع والأنشطة الاقتصادية والعقليات على غرار ما توفره أيضا دفاتر الجباية والحالة المدنية.

علينا إذن أن لا نبالغ في قدرات هذه الآلة وأن نؤكد قبل كلّ شيء على أهميّة عمل المؤرّخ الإنسان الذي لا يمكن أن يعوّضه الحسوب أو أي آلة أخرى عند التعامل مع الوثائق وتحليلها ودراستها.

التـــاريخ والجغرافيـــا

لعل من أوثق العلاقات بين التاريخ والعلوم الأخرى تلك التي بيـــن التاريخ والجغرافيا، ولا أدلّ على ذلك من تلازم المـــادتين طيلـــة ســنوات الدراسة الجامعية في شعبتي التاريخ والجغرافيا على حدّ الســـواء، وكذلـــك أثناء المرحلتين الاعدادية والثانوية من التعليم الثانوي.

فكلّ حدث تاريخي يتضمن عنصر المكان أي المجال الذى وقع فيـــه ويفسّره الى حدّ ما (أهمية النيل في تفسير حملة بونلبرت على مصر وموقـــع مضيق السويس في مفترق الطرق الرابطة بين آسيا وافريقيا وبيـــن أوربـــا والعالم الهندي). فخارطة للمعارك بأروبا تبرز التباين فـــي توزّعـــها بيـــن المناطق بحسب عامل التضاريس اذ نلاحظ كثافتها في السهول والمنخفضات (مثال بولونيا التي كانت دائما مسرح هذه المعارك بالمقارنة مـــع سويســـرا حيث تغلب عليها المرتفعات).

فللظواهر الجغرافيّة أثر كبير في تفسير الأحـــداث التاريخيّـــة إلـــى جانب العوامل الأخرى المفسّرة للحدث أو للظاهرة (أهميّة النيل في تـــاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى اليوم).

شكلت بعض العناصر الجغرافيّة كالمناخ محـــور اهتمـــام بعـــض مؤرخي الإتجاه الجديد أمثـــال لـــروا لادوري (Le Roy Ladurie) فـــي تأليفه "*Histoire du climat depuis l'an mille*" (تاريخ المناخ منـــذ عـــام ألف). سلط المؤرخ في هذا الكتاب الأضواء على أهميـــة المنـــاخ كمحـــدد للتاريخ البشري وفاعل فيه. فقد نظر المؤرخون الســـابقون للـــروا لا دوري الى المناخ كمجال خارج عن نطاق البحث التاريخي مكتفين بذكـــر تـــأثير التغيرات المناخية على مجرى الأحداث والوقائع وتفسير بعضـــها بالعـــامل الجغرافي كتفسير هجرة المغول في العصر الوســـيط نتيجـــة مـــا أصـــاب منطقتهم بآسيا الوسطى من جفاف وانعدام الكلأ والعشب الذي يعتمد عليـــهما

نشاطهم الرعوي. ومع لروا لادوري "تجاوز تاريخ المناخ هـــذه المرحلــة الميتافيزيقية ودخل عهدا وضعيّا جديدا" ممهدا لمرحلة ثانيـــة يعنــى فيــها بالتاريخ البيئي للانسان، على أساس أنّ تقلبات المناخ تلعب دورا هاما فـــي تحديد الأحداث التاريخيّة والتأثير فيها. هكذا بيّن لروا لادوري فـــي كتابــة "تاريخ المناخ منذ عام ألف" أنّه ليس من الضروري أن يكون الانسان مركز التاريخ وهو مضمون شعاره "تاريخ بدون انسان". لكن ذلك لا يعني اقصـــاء الانسان، لأنّ تاريخ المناخ هو تاريخ الانســان المندمــج بالطبيعـــة وليــس الانسان كنقيض للطبيعة، فهو تاريخ كائن يعيــش فــي محيــط جغرافــي- تاريخي معيّن.

فالعلاقة بين التاريخ والجغرافيا وثيقة في نظامنا التعليمي ويرجـــع ذلك إلى تأثير رواد مدرسة "الحوليات" وتمشيهم في فهم المــاضي اعتمـــادا على عوامل مختلفة بما في ذلك المعطيات الجغرافيّة (المناخ – التضـــاريس – المشاهد الفلاحيّة...)، فالمشاهد (طبيعية، فلاحيّة...) المتغيّرة باســـتمرار تمثل تاريخا لعلاقات الانسان بمجاله الطبيعي في عصر من العصور ذلـــك أنّ الطبيعة والبشر قد أقاما فيما بينهما علاقات تفاعل متبادلة تشكل في واقــع الأمر مراحل تاريخية للمشهد الطبيعي.

وما نلاحظه منذ التسعينات مـــن اهتمـــام المؤرخيـــن – وخاصـــة المنتمين منهم إلى المدرسة الأنجلوسكسونيّة – بقضايـــا البيئـــة أو التـــاريخ البيئي (Environmental history) يندرج في إطار المنظور الجديـــد إلـــى الماضي ومحاولة تفسيره باستغلال اختصاصات متعدّدة كالتاريخ والجغرافيـا وعلم الآثار والعلوم البيولوجيّة والطبيّة وغيرها.

التـــاريخ و العلـــوم السياسيّة

لقد ظلّ التاريخ لفترة طويلة مركّزا على تاريخ رجـــالات السياســـة والوقائع، أي الأحداث السياسيّة والعسكرية والدبلوماسيّة. إلاّ أن هذا التـــاريخ

السياسيّ شهد منذ أوائل السبعينات تطوّرا على مستوى المحتـــوى وطــرق المقاربة. فهو يغنم من وثائق محفوظة بعناية كبيرة فـــي مخـــازن أرشـــيف مختلف الوزارات للشؤون الخارجية والوزارات الأخـــرى، وهـــي وثـــائق متنوعة جدّا: برقيات، مذكرات، اتفاقيات، معاهدات، لوائح... كمـــا يشـــمل تاريخ العلاقات الدولية تاريخ المنظمات الدوليّة (الأمم المتحـــدة - منظمـــة الوحدة الافريقية - الجامعة العربية - اليونسكو...).

يشمل التاريخ السياسي الأحداث السياسية في حدّ ذاتها أي كـــلّ مـــا يهمّ تسيير شؤون الناس سواء على المســـتوى المحلـــي أو القومـــي (مثـــل الانتخابات البلدية أو التشريعية، الدساتير، الأنظمـــة السياســـية، الأحـــزاب، المؤسسات الحكومية...) وقد اقتصر هذا التاريخ على دراسة العلاقات بيـــن الدول على االصعيد الخارجي من حيث توازن القوى بواســـطة الاتفاقيـــات والأحلاف والمعاهدات. على أن هذا المفهوم الضيّق قد اتسع ليشمل أوجـــها عديدة تكوّن شبكة للعلاقات الدولية قائمة على معطيات جغرافية وديمغرافيـــة واقتصادية وتقنية وثقافية وعسكرية... وهو ما يجعل تاريخ العلاقات الدولية تاريخا ثريا ومركبا على مستوى القضايا والمحتوى والوثائق...

ما انفك طلبة شعبة التاريخ يدرســـون تـــاريخ العلاقـــات الدوليّـــة (Histoire des relations internationales) كمظـــهر أساســـيّ للتـــاريخ الديبلوماسي الذي لم يعد يقتصر الآن على المعاهدات أو الأحلاف المبرمـــة بين الدّول، بل أصبح يشمل أيضا الإتفاقيات العسكريّة والثقافيّة والإقتصاديّـــة والمؤسسات الدوليّة... يشهد تاريخ العلاقات الدولية تحولات عميقـــة منـــذ أربعين سنة، فقد ركّز كبقية مجالات التاريخ الأخـــرى - علـــى المظـــاهر الاقتصادية في العلاقات بين الدول (على سبيل المثال البنود الاقتصادية فـــي معاهدة فرساي).

تندرج قضايا الحرب والسلم ضمن تاريخ العلاقات الدولية الذي يشمل بالتالي التاريخ العسكري للشعوب (الاستراتيجيات، الأسلحة، المعاهدات، التحالفات، أصناف الجيوش ...). فقد اعتبرت الحرب وجها من أوجه السياسة لأن المواجهة العسكرية كثيرا ما تختفي أهدافا سياسية مثل الاحتلال وبسط النفوذ على البلد المحتل. وعند توقف الحروب وابرام معاهدات السلم والهدنة يلعب الدبلوماسيون دورا هاما خلال فترة التفاوض التي تضبط فيها نوعية العلاقة بين الدول المتحاربة.

عرفت دراسات العلاقات الدوليّة في الربع الأخير من هذا القرن تركيزا على مقاربتين مختلفتين : احداهما جغرافيّة والأخرى سسيولوجيّة. فالمقاربة الأولى الجغراسياسيّة (géopolitique) قد ظهرت لدى المؤرّخين الألمان عقب الحرب العالميّة الأولى ثمّ بفرنسا لدى جملة من المؤرخين الملتفين حول مجلة "هيرودوت" (*Hérodote*). وتأخذ التحاليل الجغراسياسيّة بعين الإعتبار المميّزات الجغرافيّة للنزاعات بين الدّول بسبب الحدود أو مناطق النفوذ أو حركات التحرّر ... أما المقاربة السسيولوجيّة فتتمحور حول الأبعاد الثقافيّة والإعلاميّة للعلاقات الدوليّة وحركات الهجرة...

تندرج كلّ هذه المسائل ضمن ما يعرف اليوم بتاريخ زمن الحاضر (Histoire du temps présent) أو ما سمي سابقا التاريخ الآني (Histoire immédiate).

هكذا غنم التاريخ في مرحلة أولى من تعاونه مع بقية العلوم فأفرز ذلك التداخل ظهور فروع جديدة لعلم التاريخ منها: الأنتروبولوجيا التاريخية – الديمغرافيا التاريخية – الجغرافيا التاريخية – التاريخ الكمي... ولم يكن هذا التفتح للتاريخ خاصا بفرنسا أو العالم الغربي بل مسّ أيضا الولايات المتحدة الأمريكية حيث ظهرت دراسات جديدة عن المرأة والثقافة والأقليات العرقية...

وفي مرحلة ثانية وخلافا لما كان ينتظر من التداخل بين المواد لازالة التباين بينها وتقريب مناهج عملها فقد أفضى الى احتداد الجدل بين المؤرخين نفسهم حول نجاعة هذا التداخل وانقسامهم الى مؤيد ومعارض مع أنّ نسبة كبيرة منهم لا تزال تؤمن بنجاعة وضرورة التداخل بين التاريخ وعلومه الرديفة. كما أنّ التداخل لم يقض على المنافسة بين المواد بل أذكاها أحيانا و"وحدة" المواد الانسانية المنشودة لم تتحقق اذ تشبّثت كلّ مادة بخصوصياتها وطمحت الى تزعم الحركة وقيادة المواد الأخرى ان لم نقل حاولت كلّ واحدة ابتلاع الآخرين.

المراجع :

– الحرازي –محفوظ: المبتدأ في الآثار، تونس 1996.

– حسان علي حلاق، *مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة*، ط.2، دار النهضة العربيّة، بيروت 1991.

– كامل حيدر، *منهج البحث الأثري والتاريخي*، دار الفكر اللبناني، بيروت 1995.

– روبرت لروى، *تاريخ الأتنولوجيا*، ترجمة نظير جاهل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1992.

– ديروزيل، *التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين*، ترجمة خضر خضر، دار المنصور، طرابلس 1985.

– كارلو شيبولا، *التاريخ الإقتصاديّ لسكان العالم*، ترجمة إلياس مرقص، دمشق 1990.

- Delort (R), *Introduction aux sciences auxiliaires de l'histoire*, Paris, A. Colin, 1969.

- Le Roy Ladurie (E), *Histoire du climat depuis l'an mille*, Paris, Flammarion, 1967.

- Bairoch (p), *De Jéricho à Mexico, villes et économie dans l'histoire*, Paris, Gallimard, 1985.

- Dupâquier (J), *Introduction à la démographie historique*, Paris, Colin, 1974.

- Renouvin (P), Duroselle (J.B), *Introduction à l'histoire des relations internationales*, Paris, Colin, rééd., 1991.

- Kilani (M), *Introduction à l'anthropologie*, éd. Payot, Lausanne 1992.

- *Cahiers de la Méditerraneé*, N°: 53, Dec. 1996, (Numéro spécial : Histoire et informatique).

- Guillaume (P), Pousson (J-P), *démographie historique*, coll. "U", Paris 1968.

VII. التاريـــخ اليـــوم : حصيلة وآفـــاق

« Depuis le début des années 90, nos certitudes historiques sont en train de voler en éclats ».

(H. Djaït)

ما هي السمات البارزة اليوم للكتابة التاريخية؟ ما هي الاشـــكاليات المطروحة على المؤرخين بمختلف اتجاهاتهم ومدارسهم؟ ما هـــي محـــاور اهتمامات العلوم التاريخية اليوم ؟ ما هي وضعية التاريخ اليوم: هل يعـــاني من أزمة كما يقول البعض، أم يتطور بصفة عادية؟

الواقع أن مواقف المؤرخين من هاته التســاؤلات تختلــف بحسـب عوامل شتى من بينها موقع المؤرخ ووضعيته ضمن مجموعة المؤرخيــن : انتماؤه الى جيل الأوائل الذين أسسوا المدارس التاريخية أو انتماؤه الى جيـل المؤرخين الشبان والذين يرون أن التاريخ يمر اليوم بأزمة، في حين يدافـــع الجيل الأول عن فكرة عدم وجود أزمة.. كمـــا تختلــف مواقفـــهم بحسـب وضعيتهم المهنية (الانتماء الى سلك التعليم أو الى أحدى مؤسسات البحـــث العلمي...).

وعموما فان الاشكال المطروح اليوم أكثر من غـــيره هـــو قضيـــة الموضوعية التاريخية ومسألة الحقيقة في التاريخ.

اشكـــاليّة الموضـــوعيّة التـــاريخيّة

طرحت هذه الاشكالية منذ بعض السنوات، فلم تعد غايـــة المـــؤرخ اليوم البحث عن الحقيقة اذ أيقن جلّ المؤرخين أنّ الموضوعيّة أمر نســـبيّ وأنّه يستحيل تصوّر عمل تاريخي موضوعي بالمعنى الكامل للكلمة. كـــان ذلك الخطاب في الخمسينات والستينيات عندما هيمنت على التفكير الغربـــي نزعة حلّ القضايا الفلسفيّة بواسطة العلم تحت تـــأثير تيـــاري الماركسّـــية والبنيويّة، وقد ظنّ بعضهم أنّه بالامكان سنّ "قوانين" للتاريخ علـــى غـــرار قوانين العلوم الطبيعيّة والتجريبيّة. أمّا اليوم فانّ تفوّق النزعة المضـــادة أي أنصار النسبيّة أمر يقرّه معظم المؤرخين خاصة وأنّ العـــالم يشـــهد اليـــوم تحولات سريعة سياسية واقتصادية وفكرية (انهيار المعسكر الشرقي تفكـــك الاتحاد السوفياتي- عولمة الاقتصاد- تجاوز البنيويّة...) قد بـــددت أمـــورا عدة كانت شبه يقينية لدى جلّ المؤرخين.

على أنّ كلّ من أنصار النزعة العلمّية ومخالفيـــهم أنصـــار نســـبيّة التاريخ والدراسات التاريخيّة يلتقون حول قضية جوهرية هي تحديد ماهيـــة التاريخ: هل التاريخ علم أم رواية؟ وسواء أدرجناه ضمن العلوم أو الروايـــة فانّه يفترض في الحالتين وجود قوانين تحدّد خصائص العلم أو الرواية فـــي اطار مختلف تيارات الابستيمولوجيا الفلسفّية الموروثة عن كـــانت (Kant) والمهتمة بأهداف العلوم. على أنّ الدفاع عن الطـــابع العلمـــي للدارســـات التاريخيّة لا يعني بالضرورة اقرار وجود قوانين للتاريخ بل يعنـــي الدفـــاع عن مبدإ موضوعيّة التاريخ التي هي الغاية القصوى للمؤرخ والتـــي مـــهما حاول المؤرخ جاهدا لن يبلغها كليّا اذ ما يتوصل اليه المؤرخ يمثـــل نتـــائج وقتيّة ونسبيّة لا غير. ثمّ انّ المؤرخ ككلّ انسان هو نتاج بيئتـــه وعصـــره ويتكيّف معهما ليدرس وقائع الماضي على ضوء الحاضر مستعينا على ذلك بزاد منهجي ومعرفي استقاه المؤرخ من حاضره ومن محيطه الذي يعيـــش

فيه، فيصعب عليه أنذاك أن يتجرد من هويته وماضيه ومشاغل عصره. تضاف الى هذه العوامل تأثيرات أخرى على عمل المؤرخ منها تكوينه عبر مراحل دراسته وتأثره بالتيارات الفكرية المهيمنة أنذاك.

اشكاليّة التاريخ الاجتماعي

تطوّرت بجلّ البلدان دارسات التاريخ الاجتماعي منهجا ومحتوى فسيطرت في السنوات الأخيرة الكتابة من صنف "الميكر وتاريخ" (الجزئي) (micro histoire) التي حلّت محل كتابة "الماكرو تاريخ" (الاجمالي) وذلك في اطار تيار ما بعد الحداثة (postmodernisme) الذي عمّ معظم البلدان التي أعادت النظر في تأريخانيتها. على أنّ هذا التطور لم يتّم بها بنسق واحد وفي نفس الوقت بل بصفة متفاوتة وفي أوقات مختلفة.

* ايطاليا: ظلّ التاريخ الاجتماعي بهذا البلد قليل الحظوة مقارنة بفرنسا أو بالعالم الأنجلوسكسوني، الى أن وضعت مجموعة من المؤرخين الايطاليين (Ginzburg- Levi- Poni- Grendi) في السبعينيات تمشيا مغايرا ومتميّزا مراعين فيه نتاج ما أفرزه التعاون بين الأنتروبولوجيا والتاريخ منذ الستينات، لذا خلافا لزملائهم الفرنسيين والأمريكيين – الذين اعتنوا بدراسة البني الأسرية والعادات والتقاليد وكلّ ما هو ظواهر اجتماعية جماعيّة– فقد ركزّ المؤرخون الايطاليون أعمالهم على مستوى الفرد بهدف ادراك مدى تشعب العلاقات الاجتماعية، وهو ما أسموه "الميكرو تاريخ" (microstoria). فبتحديد وتضييق مجال الدراسة يأمل هؤلاء المؤرخين تجاوز صعوبات المصادر حتى أن بعضهم ركّز اهتمامه على دراسة الألقاب لمعرفة العلاقات الاجتماعية بين العائلات..

* فرنسا: ترجع جذور التاريخ الاجتماعي بفرنسا الى أوائل القرن العشرين في اطار الارتباط بين التاريخ وعلم الاجتماع الدركايمي. وتدعّم هذا الصنف من الكتابة مع رواد مدرسة الحوليات ثم أتباع هذه المدرسة فيما

بعد الذين اعتمدوا أساسا في دراساتهم على السلاسل الاحصائية والكميات المرقّمة في اطار ما يعرف بالتاريخ السلسلي أو التاريخ الكميّ (Histoire sérielle ou quantitative)، وتدعمّ هذا التوجه في أواخر الستينيات باستعمال طرق عمل جديدة مثل الاعلاميّة التى أسدت ولا تزال خدمات جليلة واكبت ظهور ما سمي بالتاريخ الجديد (Nouvelle histoire) الذي اتسعت مجالات بحوثه وكثرت محاور اهتمامه الى حدّ أن التاريخ لم يعد قادرا على التحكّم الكلي في مختلف المحاور، ممّا أفرز في الثمانينات "تفرقع التاريخ" (Histoire éclatée) أو تفتته (histoire en miettes) فلم يعد للتاريخ الاجتماعي نظرته الاجماليّة التي ورثها عن مدرسة الحوليات التقليدية والتحق بذلك بالمدرسة الايطالية التي كانت سباقة في مجال التاريخ الاجتماعي الفردي أو تاريخ المجموعات الضيّقة والأقليات. وعرف هذا التوجه الفرنسي للتاريخ الاجتماعي بالمنعطف النقدي (tournant critique) (TC) الذي تميّز من أول وهلة عن المنعطف الألسني الأمريكي برفضه تفضيل تحليل الخطاب على طريقة فلاسفة ما بعد البنيّوية أو التفكيك، ومعترفا في آن واحد بأن دراسات برودال (Braudel) ولبروس (Labrousse) قد تخطاها الزمن وأنّه قد حان الوقت لتجدد التاريخ ومقاومة تفرقع المادة وتفتتها مع اعطاء مكانة كبيرة للقضايا الابستمولوجية. وقد تمحور النقاش في أواخر الثمانينات حول نقطتين: الطرق الجديدة في البحث التاريخي واعادة النظر في علاقة التاريخ بالعلوم الأخرى. فهذا التيار الفرنسي هو في الواقع دعوة لكل المؤرخين المتحمسين للتجديد.

* ألمانيا: تندرج دراسات التاريخ الاجتماعي بهذا البلد ضمن تيار "الأنتروبولوجيا التاريخية التأويليّة" المعروف بألمانيا بالمصطلح Alltagsges chichte أو تاريخ الحياة اليومية المعتمد على مقاربة ماركسية متجددة تعتبر العوامل الثقافية قوى حقيقية دافعة للتاريخ وهو ما لم يعره اهتماما المؤرخون البنيويون في السبعينات الذين لم يدركوا – في نظر

الأنتربولوجيين التاريخيين – البعد الثقافي للبنى الاجتماعية ودوره في آليات التاريخ الاجتماعي.

* الولايات المتحدة الأمريكية: اتخذ التاريخ الاجتماعي في هذا البلد منحى مغايرا لما كان عليه في البلدان الأوروبّية. اعتمد المؤرخون هناك مقاربة تستند الى تحليل "الخطاب الاجتماعي" وذلك في اطار ما يعرف بالمنعطف الألسني" (L.T) (linguistic turn) الذي عرفته الدراسات الأدبيّة في السبعينيات والذي يولي للغة أهميّة خاصة. وقد شملت في الأول (1980) التاريخ الثقافي الأمريكي ثم التاريخ الاجتماعي هناك وبأروبا من خلال المقالات المنشورة بمجلة *American Historical Review*، كما يدعو أنصار هذا التيار الى الاهتمام بالجانب الابستمولوجي عند التعامل مع النصوص واتباع تمشي الفلسفة التي كانت سباقة لذلك والتخلي عن فكرة الموضوعية التاريخية والبحث عن الحقيقة... ففي منظور هذا المنعرج فانّ التاريخ يعتبر مجرد نمط أدبي كغيره من الأنماط، وبالتالي يجب مقاربته بواسطة النقد النصيّ. وكان التاريخ الاجتماعي أول مستهدف من ذلك.

والواقع أنّ المنعطف الألسني جاء مع حركة تجدد التاريخ والمعروفة بـ (New historicism) أي ضمن التيار النقدي الأمريكي النابع من فلسفة التفكيك أو ما بعد البنيوية مع فوكو، دريدا، ليوتار... وفي اطار تحليل الخطاب الاجتماعي على أساس وجود خطاب الفئة المهيمنة على الفئات الأخرى لذا وجب اعادة قراءة التاريخ وتأويل الأحداث التاريخيّة. فظهرت في هذا السياق دراسات عن المرأة انطلاقا من تحليل الخطاب أي العلاقة بينها (المهيمن عليها) وبين الرجل (المهيمن). كما ظهرت دراسات عن الأقليات والتعدديّة الثقافية والهويّة القوميّة... كلّ ذلك بهدف التخلص تدريجيّا من مركزيّة الغرب في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكيّة.

وعموما فانّ وضعيّة التاريخ الاجتماعي اليوم متشابهة في معظم الأقطار: في ايطاليا تفوّق الميكروستوريا (microstoria) وفي فرنسا (micro histoire sociale) وفي انقلترا (social history) وفي ألمانيا (Alltags geschichte) وفي الولايات المتحدة الأمريكيّة نجد (gender history). فتحوّل التاريخ الاجتماعي وتطوّره في السنوات الأخيرة هو عنوان ثرائه من ناحية وتجدد طرق مقاربته، ففي حين يعتمد "الماكر وتاريخ" طرق المقاربة السسيولوجية فانّ "الميكرو تاريخ" يعتمد طرق بحث الأنتوغرافيا.

انتعاشة التاريخ السياسي والثقافي

يشهد التاريخ السياسي انتعاشة منذ السبعينات وذلك لعوامل عدة منها التراجع المطرد لتأثير الاديولوجية الماركسية على العلوم الانسانية والاجتماعية من ناحية وتجدد التاريخ السياسي بدوره من الداخل من ناحية أخرى.

ومن مظاهر هذه الانتعاشة اكتساح التاريخ السياسي مجالات جديدة اذ لم يعد مقتصرا على الظواهر الدبلوماسيّة والعسكريّة واهتمامه بأحداث الساعة في اطار ما يعرف "بتاريخ زمن الحاضر" (histoire du temps présent). كما انتعش أيضا بتجدد تعريف ومحتوى التاريخ السياسي ليشمل كلّ مظاهر توزّع السلطة داخل مجموعة بشريّة ما وما ينجر عن ذلك من صراعات وخلافات بين عناصر تلك المجموعة.

كما انتعش التاريخ السياسي باسهامات فروع أخرى من التاريخ كالتاريخ الثقافي والأنتروبولوجيا التاريخية، فسجل بذلك رجوعا بقوة على ساحة الدراسات التاريخية اليوم في جلّ الأقطار.

وسجل بالتوازي أيضا التاريخ الثقافي انتعاشة في السنوات الأخـيرة على اثر تراجع التمشيين الماركسي والبنيـوي وبذلـك يلتقـي التاريخـان السياسي والثقافي باعتبارهما يهتمان بالانسان الفاعل والمفكر في آن واحـد. فمن أبرز مظاهر هذا الالتقاء استعمال مصطلح السياسة الثقافيّة والذي يجمع بين السياسة والثقافة والذي يأخذ بعيـن الاعتبـار قضايـا الـرأي العـام والحساسيات والانتماءات الحزبيّة... فهي مقاربة ثقافية للسياسة تستند الـى تصورات المجموعة البشرية المعنيّة بالدراسة في المجال السياسـي والـى مخيالها الاجتماعي والثقافي.

تدعّم تـاريخ زمن الحـاضر

لم يعد زمن الحاضر من مجالات وسائل الاعلام فقط بـل احتـواه أيضا التاريخ الآني وأصبح فرعا من فروع التاريخ، له بفرنسا معهد خـاص به ودورية خاصة بدراساته واعترف به كمجال من مجالات اهتمام المـؤرخ اليوم رغم حداثة ظهوره اذ يرجع استعمال مصطلح "تاريخ زمن الحـاضر" الى السبعينيات، على أنّه سجل منذ ذلك التاريخ عزوف بعـض المؤرخيـن عن هذا الصنف من الكتابة التاريخيّة استنادا الى ثلاثة أسباب: أولها غيـاب البعد التاريخي الضامن في نظرهم للموضوعيّة التاريخيّـة المنشـودة مـن طرف كل مؤرخ، ثانيها قضية المصادر من حيث تنوعها وخاصة المصـادر الشفوية لشهود العيان وما يحوم حولها من تشكيك في مصدقيتـها، وثالثـها يكمن في صعوبة تحليل وتأويل الحدث الآني الذي لا نعرف بعد نهايته ومآله وانعكاساته على مجرى الأحداث. هذا بالاضافـة الـى تخوّفـات بعـض المؤرخين من التداخل بين التاريخ والصحافة والعدالـة أحيانـا. علـى أنّ المدافعين عن هذا الصنف من التاريخ يعولون أساسا على مبـدإ اسـتقلالية المؤرخ العلميّة وضرورة توفر حرية التعبير للمؤرخ كشرط أساسـي لكـلّ عمل تاريخي قيّم يطمح فيه صاحبه الى بلوغ الحقيقة ولو نسبيّا.

أزمـــة التـــاريخ ؟

كثر الحديث في السنوات العشر الأخيرة عن أزمة التاريخ فقسـمت هاته المسألة المؤرخين الى شقين كبيرين بين من يرى التاريخ اليـوم في ازمة وبين من يراه في مرحلة انتقاليّة لا غير، بل في نظر هؤلاء التـاريخ في صحة جيّدة وفي تطور مطرد كماً وكيفا فعلى ماذا يستند كلّ شـقّ في تحليله لوضعية التاريخ اليوم شرقا وغربا؟ وهل هنـاك حقـا أزمـة في الدراسات التاريخية اليوم؟ وان كانت هنـاك أزمـة فمـا هـي مظاهرهـا وأسبابها؟

فالشقّ الأول يعلّل وجود الأزمة بمنافسة المدارس الأجنبيّة -خاصـة الأنجلو سكسونية المهيّمنة حاليا على العلوم التاريخيّة - للمدرسة الفرنسـيّة، وكذلك مزاحمة وسائل الاعلام المكتوبـة والمسـموعة والمرئيّـة للكتابـة التاريخية. هذا بالاضافة الى تراجع المفهوم التقليدي للتاريخ وغاياته (البحـث عن الحقيقة والسعي الى الموضوعيّة) أمام تفوّق نزعـة النسـبيّة للخطـاب التاريخي. وبلغ الأمر ببعضهم بالقول "بنهاية التـاريخ" علـى حـدّ تعبـير الفيلسوف اليابـاني الأصـل والامريكـي الجنسـية فرنسـيس فوكوياما (Fukuyama) في كتابه الذي أثار ضجة عند صـدوره في سـنة 1992 *"La fin de l'histoire et le dernier homme"* ليلفت النظر الـى تراجـع التاريخ السياسي لفائدة التاريخ الاقتصادي والتقني، الا أنّ المقصود بالتـاريخ من طرف الفيلسوف لايعني نهاية تعـاقب الأحـداث بـل نهايـة التطـوّر المتجانس الذي يأخذ بعين الاعتبار تجارب كلّ الأمم في آن واحد انطلاقـا من ملاحظة أنّ النظام الديمقراطي قد يكون منتهى التطـوّر الايديولوجـي للبشرية وهو ما قصده فوكوياما من "نهاية التاريخ"، وهو بذلك يقارب مفهوم هيقل للتاريخ الذي بدوره يتفق مع مـاركس، فكلاهمـا يؤمـن أنّ تطـوّر المجتمعات البشرية ينتهى حينما تتوصل البشرية الى ايجاد نمط من المجتمع

يرضي حاجياتها الضرورية. وكلاهما تحدث عن "نهاية التاريخ"، لكن بالنسبة لهيقل مع قيام الدولة الليبرالية ولماركس مع تحقيق المجتمع الشيوعي. فدراسة فوكوياما هي قراءة جديدة لهيقل ولنيتشه في مقولته عن "الانسان الأخير." فالانسان يتميّز عن بقية الكائنات وخاصة الحيوانات بقدرته على المجازفة بحياته ليعترف به من قبل الأخرين ولردّ الاعتبار لكرامته، وهو ما يفسر في نظر فوكوياما قيام الثورات عبر التاريخ.

هذا ولاقت نظرية فوكوياما معارضة قوية اذ اعتبرت خليطا بين مقولات كلّ من هيقل ونيتشه وماركس وسقراط وافلاطون وغيرهم. كما أنّ المجتمع الليبرالي الذي يعتبره فوكوياما نموذجا لا يخلو بدوره من مشاكل داخلية كالبطالة والتمييز العنصري والجرائم والمخدرات... الا أنّ فوكوياما يردّ ذلك الى التطبيق المنقوص لمبدئى الحرية والعدالة اللتين هما ركيزتا كلّ ديمقراطية عصرية.

وفي المقابل يردّد الغربيون في السنوات الأخيرة مقولة "تسارع التاريخ" (Accélération de l'histoire) إزاء ما يشهده العالم والمجتمع الدولي من أحداث جسام في فترة زمنية وجيزة جدّا. فالتسارع هو حركة عامة لولبية لكونها تجرف في تيارها الأمم والأفراد وتكتسي أربع ظواهر كبرى مجتمعة ومترابطة: التطور التقني المذهل خاصة في مجال الاتّصال، سيطرة الثقافة العقلانية والليبرالية، تفجر الشعور القومي ويقظة القوميات في أغلب مناطق العالم وأخيرا انتصار نموذج دولة القانون البرلمانية التعددية بعد انهيار المعسكر الشرقي. فكأنّ التسارع أصبح بدوره ظاهرة تاريخية للعصور الحديثة وبالتالي مرتبط بظاهرة الحداثة التي تميّز حضارتنا اليوم.

ولعلّ ما يتّفق فيه كلّ من فوكوياما وأنصار التسارع هو أنّ التاريخ لا يتوقف.

وعموما فان النظرة التشاؤميّة لأنصار الأزمة تنبع من ملحوظتـــهم أنّ التاريخ ضحيّة التحولات السريعة التي يشهدها العالم اليوم على مختلــف الأصعدة. على أن الحديث عن أزمة التاريخ ليس في الواقع جديدا، فقد سبق وقلّما خلت الساحة العلميّة من مثل هذه النقاشات في أوائل القرن العشـــرين وفي الثلاثينيات والستينيات مع تيار التاريخ الجديد وأخيرا في التســـعينيات مع الحديث عن ما بعد الحداثة وما بعد البنيويّة. على أنّ من أهـــمّ مشـــاغل المؤرخين اليوم قضية "تفتّت التاريخ" (L'émiettement) وقول بعضـــهم أنّ التاريخ لم يعد يشكّل مادة متجانسة بسبب تضاعف عدد المؤرخين والبـاحثين وتفتح المادة على العالم الخارجي بتداخل المواد والعلاقـــات التـــي ربطـــها التاريخ مع المواد الانسانية والاجتماعية الأخرى (وهو موقـــف المؤرخيـــن المحافظين)، وفي نظر هؤلاء فانّ الازمة تتعدى هذا المظهر لتشمل المعرفة التاريخية نفسها لامن حيث كمّ الانتاج العلمي بل من حيث ضآلة التجديـــد، فيه واختلاف المؤرخين فيما بينهم في تحديد مفهوم "علم التاريخ"، والتـــأثير المتزايد للمناهج الأمريكية على التأريخانية الغربية، والتداخل بيـــن تـــاريخ زمن الحاضر والصحافة، والتراجع الملحوظ للجدل العلمي حـــول قضايـــا كبرى على الساحة التأريخانية بالمقارنة مع ما شهدته هـــذه الســـاحة مـــن نقاشات حادة اثر الحرب العالمية الثانية...

وفي المقابل هناك شقّ المؤرخين المتفائلين لوضعيّة التاريخ اليـــوم ومستقبل الدراسات التاريخيّة ويستندون في تحليلهم الـــى مؤشـــرات منـــها: تطور عدد المؤرخين المحترفين فـــي العـــالم وارتفـــاع عـــدد الدوريـــات ومؤسسات البحث المختصة في التاريخ بمختلف حقبـــه وفروعـــه وتزايـــد الأعمال التاريخية المترجمة من لغة الى أخرى على مستوى العالم ويـــرى هؤلاء المؤرخين أنه لا يوجد معايير دقيقة لقيس الازمة ان كانت موجـــودة وبالتالي لا يمكن الاصداع بها، بالعكس نلاحظ تضخم دولية البحث العلمـــي التي نتجت عن عولمة المبادلات التجارية وتطـــوّر وســـائل المواصـــلات

(الاعلامية، الفاكس، البريد الالكتروني...) بالاضافة الى مزيد تفتح التــاريخ على العلوم الأخرى، الأمر الذي غذى الجدل بين المؤرخين ونماه. وعمــوما فانّ في نظر المتفائلين التاريخ لم ينته ولم يتوقّف ولن يتوقّف، وهو يســـير، بل انّ "نهايته" في واقع الأمر انتعاشة من جديد "لفلسفة التاريخ".

ويفسر بعضهم انقسام المؤرخين ازاء الأزمة بعوامل مهنيّة ومبدئية. فالشقّ الأول يضم بالأساس الباحثين والأساتذة الشبان الطامحين الى التغيــير والناقمين على الوضعيّة الحالية، في حين يتكوّن الشق الثاني من المؤرخيــن المحنكين في الحرفة والراضين عن وضعيّة التاريخ اليـــوم. هــذا ويــرى بعضهم أنّ الانقسام هو أيضا بين الأساتذة المدرّسين بالجامعات والبـــاحثين في المخابر ومراكز البحث. فالجدل حول أزمة التاريخ قد أفرز تباينا هامـــا بين المؤرخين المنشغلين بالتحولات الحديثة في مستوى "حرفة المؤرخ" مــن ناحية ونظرائهم المنشغلين بقضايا "المعرفة التاريخية" ومآلها مـــن ناحيــة أخرى. فكأنّ الجدل الذي كان قائما من قبل بين الفلاسفة والمؤرخيـــن قــد أصبح اليوم في صلب التاريخ وبين مختلف أجيال المؤرخين وخصوصا بين الشبان منهم وسابقيهم أو أكبرهم سنا.

وسواء أكان التاريخ في أزمة أو لا، فإنّ ما نلحظـــه هــو تواجــده ضمن محاور النقاش الكبرى وفي خضم الرهانات السياسيّة والثقافيّة الهامــة في اطار الجدل الفلسفيّ عن التاريخ الذي يشهد اليوم عــودة بقــوة بعــد أن تراجع في السنوات الماضية. فالخوض في قضايا شائكة اليوم مثل ما بعـــد الحداثة أو ما بعد البنيويّة يتمّ غالبا بمشاركة التاريخ والمؤرخين.

مــؤرخ الــغــد

إن كانت تلك هي وضعية التـــاريخ والمؤرخيــن اليــوم وتوجــه الدراسات التاريخية، فهل بالامكان تصوّر ما سيكون عليه مــؤرخ ســنوات ألفين؟ طبعا من الصعب ذلك، ولكن سنحاول.

لاشك أنّ مؤرخ الغد لن يستعمل طرقنا ولا قيّمنا، ولن تكـون لـه نفس مشاغلنا وهمومنا ومتطلباته غير متطلباتنا. لاشك أنّ محاور اهتمامـه تختلف عن اهتمامتنا ولعله سيراجع انتاجنا التاريخي على غرار ما سـيفعله نظراؤه في المواد الأخرى وبالتالي ينتظر حدوث طفرات هامة ان لم نقـل قطيعة بينه وبين سابقيه.

مؤرخ الغد سيكون أعلم منّا وأكثر اطلاعا اذ سـيغنم مـن تطـوّر وسائل الاعلام المطّرد وبالتالي تتوفر له طرق عمل أخرى أكثر تطوّر تقنيّـا تمكّنه من استغلال مواد أخرى (من يعلم ما ستكون عليـه الاعلاميـة فـي منتصف القرن القادم؟) ولكن ستكون أيضا لمـؤرخ الغـد حاجيـات غـير حاجياتنا ولعلّه يصعب علينا تصوّرها وستكون له مواقف من انتاجنا العلمـي مع ما قد ينجرّ عن ذلك في اطار ما يعرف بصراع الأجيال على غرار مـا يحدث اليوم بين المؤرخين الشبان ومؤرخي الستينات والسبعينات.

فمؤرخ الغد قد يشهد اتحاد البلـدان الأوربيـة بأكملـها وادماجـها بالاضافة الى العوملة الاقتصادية، فما سيكون دوره أنذاك في مجتمع متعـدد الثقافات والأجناس؟ هل سيلعب التاريخ دور الموّحد أم المغـذي للقوميـات؟ فبقدر ما تتعدد الفرضيات والاحتمالات تتعدد المواقف التي قد يتّخذها مـؤرخ الغد.

فطالب اليوم بشعبة التاريخ هو مؤرخ الغد، ولكن ليس كلّ الطلبـة سيكونون مؤرخين محترفين، فمنهم من سيكون أستاذا بـالتعليم الثـانوي أو بالتعليم العالي وأقليّة منهم فقط ستحترف الكتابة التاريخية.

المراجــع:

- Prost (A), *Douze leçons sur l'histoire*, seuil 1996.

- Revel (J), *jeux d'echelles. La micro-analyse à l'expérience,* Gallimard / seuil, Paris 1996.

- Levi (G), *on micro history*, oxford 1992.

- Noiriel (G), *sur la crise de l'histoire*, Belin, 1996.

- Rioux (J.P)- sirinelli (J.F), *Pour une histoire culturelle,* Le seuil 1997.

- Thuillier (G), *l'histoire entre le rêve et la raison,* Economica, Paris 1998.

- Bonnaud (R), *où va l'histoire*? éd. Arcantére, Paris 1993.

خـاتـمة

ان التاريخ كمعرفة للماضي البشري ومحاولة لفهمه يملـي علـى المؤرخ كتابة ذلك الماضي في أشكال مختلفة (كتب – مقالات – محاضرات – دروس جامعية...)، الا أن ما يكتبه المؤرخ هو ثمرة مجهود كائن بشـوي ملتزم ومتجذر في محيط ينتمى اليه سياسيا واجتماعيا وثقافيا وتقنيا، وبالتالي فان ما يتوصل اليه المؤرخ في أبحاثه لا يمثل الا اجابة وقتية عن تسـاؤلاته وتساؤلات أهل عصره في انتظار اكتشاف وثائق جديدة تدفع بالبحث العلمـي الى الأمام وهو ما يقوم به المؤرخون المحترفون منذ توسيداس الى مـاكس فيبر أو مارك بلوك...

لقد سعينا من خلال كتابنا هذا "**مدخل إلى دراسـة التـاريخ**" إلـى تحسيس طلبة شعبة التاريخ بصعوبة "حرفة المؤرخ" وحساسيتها من ناحيـة، واعانتهم على تذليل تلك الصعوبة بإسدائهم التوجيهات المنهجية الضروريـة من ناحية أخرى.

إن تعامل الطالب مع مجالات متنوعة (تاريخ سياسي، اقتصـادي، اجتماعي، ثقافي...) وحقب تاريخية عديدة (عصور قديمة، وسيطة، حديثـة، معاصرة...) وشعوب مختلفة يمكنه أن يلمس الفوارق بين الأمم والأزمنـة والمجالات ويكون واعيابها ويدرك أنه لا يدرس في الواقع تاريخا واحدا بـل تواريخ متعددة من حيث الزمان والمكان (أوربا الغربية– بلدان افريقيـة – آسياوية...)، ومن حيث البشر وأن الانسان هو صانع التاريخ ومركز اهتمام المؤرخ الذي يسعى دوما إلى معرفة الإنسان وفهم علاقاته بغيره وبمجالـه في عصر من العصور وفي ظروف تاريخية معينة.

إلاّ أنّ هذا الفهم ليس بالأمر الهيّن في وقت قد تشعّبت فيه قضايا التاريخ واتسعت مجالات اهتمام هذا العلم الذي قال عنه ابن خلدون منذ القرن الرابع عشر ميلادي: "... اعلم أنّ فنّ التاريخ فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية... فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوّعة وحسن نظر وتثبّت يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ وينكبان به عن المزلات والمغالط...". فهو يستوجب من المؤرّخ حسّا نقديّا مرهفا وعناء طويلا وصبرا لا ينفذ وتمشيّا واضحا وموضوعيّا، وإن كنّا على يقين بأنّ الموضوعيّة أمر نسبيّ وغاية يصعب ادراكها مهما حاول المؤرّخ ./.

ملاحق

ملحق رقم1

توينبي والتاريخ

"... أنا غير مقتنع بأنه يجب منح شـــيء مـــن الامتيـــاز للتـــاريخ السياسي. أنا أعرف جيدا أنه حكم مســبق شــائع, فذلــك مــيزة مشــتركة للتاريخانية الصينية والإغريقية, ولكنها غير قابلة للتطبيق على التاريخانيـــة الهندية مثلا. فللهند تاريخ عظيم, ولكنه تاريخ دين وفن وليس تاريخ سياســة على أي حال من الأحوال..."

Toynbee, *L'histoire et ses interprétations*, p.196

(تعريب المؤلف)

"je ne suis pas convaincu qu'on doive concéder une sorte de privilège à l'histoire politique. Je sais bien qu'il y a là un préjugé répandu; c'est un trait commun à l'historiographie chinoise et à l'historiographie grecque. Mais il est tout à fait inapplicable à l'histoire des Indes, par exemple. Les Indes ont une grande histoire, mais c'est une histoire de la religion et de l'art, ce n'est aucunement une histoire politique.

ملحق رقم2

المعرفة التاريخية

... التاريخ هو معرفة الماضي البشري... ونقول معرفـــة وليـــس كمن يقولون" رواية الماضي البشري" أو أيضا "إنتاج أدبي بهدف إعادة رسم الماضي".

فلا شك أن كل عمل تاريخي يفضي حتما إلى إنتاج مكتوب لأن تلك ضرورة تطبيقية تتصل بدور المؤرخ الاجتماعي. والواقع أن التاريخ يوجـــد بعد في فكر المؤرخ قبل أن يكتبه هذا الأخير...

نقول معرفة وليس كمن يقولون "بحـــث" أو "دراســـة" (وان كـــان المعنى الأول لكلمة تاريخ في اللغة الإغريقية يعني البحث), لأن فـــي ذلـــك خلط بين الغاية والوسائل, فالمهم هو النتيجة التي يتوصل إليها البحث, فنحـــن لانجري وراءها إذا ما كنا غير واثقين من إدراكها. فعندما نقـــول معرفـــة نعني بذلك معرفة صحيحة وحقيقية. فالتاريخ يتعارض مع ما هـــو تصـــور خاطئ أو مزيف وغير واقعي للماضي أي مع التاريخ الخيـــالي والروايـــة التاريخية والأسطورة...

ولعله يمكن القول أنها "معرفة علمية للماضي" مع ما يكتنف لفـــظ علم من غموض... فلنتفق أن العلم هنا ليس بالمعنى الابستيمولوجي, ولكـــن ما يعارض المعرفة المبتذلة للتجربة اليومية, وبالتالي المعرفة التي تضمـــن أقل ما يكون من الحقيقة...

فمعرفة الماضي البشري هي معرفة إنسان الأمس أو الماضي مـــن طرف إنسان اليوم والغد أي المؤرخ... ولكن لنقلها عاليا أن عمل المـــؤرخ ليس اعادة احياء الماضي اذ ما يكتب عنه المؤرخ ليس هو عين المـــاضي عندما كان حاضرا...

Marrou (H.I), *De la connaissance Historique*, p.29 – 40

(تعريب المؤلف)

ملحق رقم3

المؤرخ والأحداث التاريخية

"ماهو الحدث التاريخي ؟ انه سؤال جوهـــري... فحســـب الـــرأي المتداول هناك بعض الأحداث الأساسية التي هي نفسها لكل المؤرخين والتي تشكل – بعبارة أخرى- العمود الفقري للتاريخ ... فـــالأحداث والمعطيـــات الأساسية التي يتفق حولها المؤرخون تدرج ضمن صنف مواد المؤرخ أكـــثر منها ضمن التاريخ في حد ذاته...

ثم إن ضبط هذه الأحداث الأساسية صـــــادر عـــن قـــرار مســـبق للمؤرخ... فهذه الأحداث لا تنطق إلا بدعوة من المؤرخ: فهو الـــذي يقـــرر ترتيبها وإطارها, فهو بالضرورة انتقائي... فالتاريخ هو إعادة بناء في فكـــر المؤرخ للفكرة التي يدرس تاريخها.

لا يمكن كتابة التاريخ إذا لم يتوصل المؤرخ إلى إقامة تواصل مـــع عقلية الذين يكتب عنهم. ثم انه لا يمكن إدراك الماضي وفهمـــه إلا بـــأعين الحاضر. فالمؤرخ ينتمي إلى عصره وهو بالطبيعة مديـــن لـــه... فوظيفـــة المؤرخ ليست حب الماضي ولا التخلص منه, ولكن التحكم فيه وفهمه لفـــهم الحاضر.

أما عن السؤال ما التاريخ؟ فانه تفـــاعل مســـتمر بيـــن المـــؤرخ والأحداث وحوار سرمدي بين الحاضر والماضي..."

Carr (E.H), *Qu'est-ce que l'histoire*? P. 51…

(تعريب المؤلف)

ملحق رقم4

المنهج التفكيكي

... هو منهج جديد من ثمار فكر ما بعد الحداثة يمثل إضافة جديدة لتيارات الفكر الإنساني ويعمد المنهج إلى تفكيك النص وتجاوز حدود البناء اللغوي-النحوي إلى الكشف عن التفاعلات الاجتماعية أي عن بيئة النص, والى الكشف عن ما وراء النص, أي ما يخفيه أو يضمره النص, ولكنه جزء منه وفي صلبه, ومن ثم يحاول إبرازه وإشهاره ليكتمل المعنى في زمان ومكان محددين...

إن النص يشير إلى ما هو أبعد من حدود المعاني القاموسية: انه موقف وسياق حياة دافقة فياضة زاخرة بالعلاقات والتفاعلات والمعاني المضمرة, بل والخافية. وان النص- وان جاءت روايته على لسان فرد- إنما هو عمل جماعي أو مجتمعي بمعنى من المعاني. وتتمثل مهمة الباحث الملتزم بهذا المنهج التفكيكي في التماس الكشف عن هذه الحياة المتجسدة في عناصر كثيرة: المؤلف في التاريخ, والمتلقي في بيئته الأشمل وعلاقاته المعقدة, وموقف كل منهما, وما يقترن بذلك من حالات ذهنية وبنية فكرية وبيئة اجتماعية متباينة, وربما متصادمة العناصر والتوجهات... وهكذا فان تفسير وتأويل النصوص لا يتمان إلا عن طريق رد النص إلى رابطته ونواته الاجتماعية في ضوء فهم الاطار الاجتماعي لإنتاج النص وسياق حياة النص في تفاعله بين أطرافه وعناصره... ومن ثم يقال إن معنى النص معنى تفاعلي ... فليس للنص أبدا معنى واحد, وإنما معان متوالية مواكبة لفيض الحياة, وتحول النص شاهد صدق على تحول المجتمع, والنقيض صحيح أيضا. إذ لا يوجد مجتمع منعزل عن التفاعل وجودا وفكرا وثقافة مع المجتمعات الأخرى أو الانفعال بها, ومن ثم لا توجد مجتمعات بقيت على مدى التاريخ على حالها أسيرة ثقافة نقية أو فكر جامد لا يتحول...

شوقي جلال, *عالم المعرفة*, جانفي 1998, ص 12-14

ملحق رقم5

نظرية التبدلّ عند ابن خلدون

أعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغايـــة إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سـيرهم و الملوك في دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يـــروم فـــي أحوال الدين والدنيا. فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحســن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحـــق وينكبـــان بـــه عـــن المـــزلات والمغالط... ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحـــوال فـــي الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام وهو داء دوى شديد الخفـــاء إذ لا يقع إلا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقـــة, وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحـــــدة ومنهاج مستقر إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلـــــى حال, وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمطار فذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده...

ابن خلدون, المقدمة. ص 6-17 .

ملحق رقم 6

الموضوعية في العلوم الإنسانية

تعنى الفلسفة منذ القرن التاسع عشر بالبحث في شروطه وإمكانية التفسير الموضوعي للتاريخ والمجتمع... فوفقا لدعاة النظرة الوضعية و العلمية الطبائعية في العلوم الإنسانية فان التفسير المناسب للفعل أو السلوك الاجتماعي هو ما يظهر أن حادثة ما تكون نتيجة أو مثالا لتعاقبات سلوكية أي لقوانين سببية عامة تربط أنماطا سلوكية بشروط سابقة ومضطردة يمكن التحقق منها "بطريقة موضوعية" على أساس الملاحظة التجريبية.

بالمقابل فان دعاة الفهم في العلوم الإنسانية قد دافعوا عن الاستقلالية المنهجية للعلوم التاريخية والإنسانية. وهم يرون أن موضوع بحث هذه العلوم هو أفعال وتجارب الأفراد والمجتمعات وما تتضمنه من بعد "قصدي". إن العلم الاجتماعي "التأويلي" بنظرهم لا يعني بتفسير تتابعات السلوك وإنما بتوضيح "المعنى" الكامن في هذه التتابعات. وهذا "المعنى" بدوره لا يمكن أن نعبر عنه بقانون عام أو التحقق منه بالإشارة إلى معطيات بائنة للجميع. إن المطلوب هو تأويل هذه المعطيات نفسها أي فهم معناها.

يرى دعاة المنظور التأويلي أن المدافعين عن المنظور العلمي (الطبائعي) باعتمادهم على الملاحظة والقوانين العامة واستبعاد التقييمات الذاتية في فهم السلوك, فانهم يضعون تصورا علميا للموضوعية... وفي المقابل فان دعاة النظرة الطبائعية أو "العلم الموحد" يزعمون أنه بدون التصور العلمي للموضوعية, فان العلوم الاجتماعية والتاريخية تبقى علوما ذاتية وفي مستوى من الموضوعية أقل من ذلك الذي تحوزه التفسيرات العلمية الناموسية...

أحمد وليد عطاري, الكراسات التونسية,

عدد174, 1996, ص 12-13.

ملحق رقم 7

حول مفهوم الوثيقة وتجديد الخطاب التاريخي

تكتسي الوثيقة في المبحث التاريخي أهمية قصوى. وغني البيان القول, إن هذه الأهمية هي التي جعلت الباحثين يتهافتون على التنقيب عنها, ويتسابقون في توظيفها واستثمارها. بل إن الأمر قد وصل بالبعض منهم إلى حد اكتنازها واحتكارها تلبية لنزوع حبّ تملك كل ما هو نفيس. من هذا المنطلق غدت تجارة المخطوطات تجارة رابحة...

إن الوثائق هي ذاكرة الشعوب , واستنطاق هذه الذاكرة لا يتم عبر التخمين أو التكهن, أو حتى عن طريق المقابلة بين الشعوب...

يعد التاريخ من أكثر العلوم الإنسانية ارتباطا بالوثيقة , حتى أنه بدونها يستحيل الحديث عن مفهوم للتاريخ أو للكتابة التاريخية... إن القفزة النوعية التي حققتها الكتابة التاريخية في أوروبا ترتبط أساسا بوعي المؤرخ بأنه لا يقص على الناس أحداث الماضي بقدرما يقص عليهم مراحل تعامله مع الوثيقة... فموقف العروي من الوثيقة شبيه في كثير من جوانبه بموقف فوكو الذي يرى بدوره بأن " المؤرخ في الوقت الراهن عليه أن يغير نظرته إلى الوثيقة. إذ عليه أن يتجاوز فكرة اعتبار الوثيقة شهادة عن الماضي وبصمة من بصماته. إن النظرة التجديدية تقتضي أن يقوم المؤرخ بتقسيم الوثيقة وتوزيعها إلى عدة مستويات وسلاسل فيحدد الأساسي والثانوي, ويعين الوحدات, ويصف العلاقات. يجب إذن تحرير التاريخ من تلك المهمة التي ارتضاها لنفسه مدة طويلة وهي أن يكون ذاكرة عتيقة لماض إنساني فائت. إن هذا التبرير الأنثروبولوجي أصبح اليوم متجاوزا. فالتاريخ هو طريقة من الطرق التي يتعامل بواسطتها مجتمع من المجتمعات مع مادة وثائقية موروثة.

الحسين بولقطيب, الفكر العربي المعاصر,

عدد 78-79, 1990, ص 111-120

ملحق رقم 8

الطبري والتاريخ

وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من ابتداء ربنا جلّ جلاله خلق خلقه إلى حال قيامهم من انتهى إلينا خبره ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه فشكر نعمه من رسول له مرسل أو ملك مسلط أو خليفة مستخلف ... مقرونا ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر نعائمه وجمل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه... ثم أنا متبع آخر ذلك كله إن شاء الله وأيد منه بعون وقوة ذكر صحابة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأسمائهم وكناهم ومبالغ أنسابهم ومبالغ أعمارهم ووقت وفاة كل إنسان منهم... ثم متبعهم ذكر من كان بعدهم من التابعين لهم بإحسان...

وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمه فيه إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه دون ما أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجها في الصحة ولا معنى في الحقيقة, فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا.

الطبري, تاريخ الرسل والملوك, ج1, ص 4-5.

ملحق رقم 9

ابن خلدون والتاريخ

أما بعد, فان فن التاريخ من الفنون التي يتداولها الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السوقة والأغفال وتتنافس فيه الملوك والأقيال... إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومباديها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق, فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق جدير بأن يعدّ في علومها وخليق.

ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الأمس واليوم نبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم وسمت التصنيف من نفسي وأنا المفلس أحسن السوم فأنشأت في التاريخ كتابا رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا وآخترعته من بين المناحي مذهبا عجيبا وطريقة مبتدعة وأسلوبا وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن و ما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية... ورتبته على مقدمة وثلاثة كتب:

- المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والالماع بمغالط المؤرخين.

- الكتاب الأول في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم...

- الكتاب الثاني في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدا الخليقة إلى هذا العهد وبعض من عاصرهم من الأمم المشاهير ودولهم...

- الكتاب الثالث في أخبار البربر...

ابن خلدون, المقدمة, ص3-4

ملحق رقم 10

مبادئ المجلة التاريخية

نحترم البقاء مستقلين عن كل رأي سياسي أو ديني... فنحن نقبل الآراء والانطباعات المتباينة شريطة أن تكون مدعمة بحجج نوقشت بجدية وبأحداث وليست مجرد حقائق ثابتة. فمجلتنا ستكون مجالا للعلم الوضعي والنقاش الحر...

فلن يكون لنا أي لواء ولن ننضوي تحت أوامر أي حزب. على أن ذلك لا يعني أن مجلتنا ستكون "برج بابل" يفصح فيها كل عن آرائه.

لن يتمكن المؤرخ من فهم الماضي إن لم يستطع نسيان مشاعره الذاتية وأفكاره ليمتلك لفترة مشاعر وأفكار أناس الماضي وليضع نفسه مكانهم والحكم على الأحداث في الإطار التي جرت فيه. فالمؤرخ يعالج ذلك الماضي في آن واحد بشعور الاحترام...

هذا ويحافظ المؤرخ على استقلاليته الفكرية ولا يفرط في حقه في النقد والحكم... فلا هو يدافع عن هؤلاء ضد أولئك, ولا يرفع قضية الملوكية باسم الاقطاعية ولا قضية الثورة الفرنسية بالاسم الملوكية.

يعمل التاريخ بصفة سرية وثابتة على عظمة الوطن وفي آن واحد على تقدم العنصر البشري.

Monod (G), *Revue historique*;, n°258, 1976, p.322-324

(تعريب المؤلف)

ملحق رقم 11

دور المؤرخ العربي

...حظي التاريخ منذ القدم بمكانة قيمة بين العرب... فالتاريخ بمفهومه الحديث لم يعد فقط تاريخ أفراد ولا تاريخ فتوحات وهزات, بل هو تاريخ شعوب يعبر عن حركة المجتمع ويرصد ما يكنه هذا المجتمع... فلا بد من النظرة الشمولية للمؤرخ العربي عند قيامه بدوره وبخاصة في معالجته لقضايا الأمة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية ولا بد من التركيز على الدور الشعبي في حركة التاريخ وأن لا يرى المؤرخ الحدث التاريخي من وجهة نظر فئة معينة لان ذلك يفقده دوره ويبعده عن الالتزام والموضوعية...

إن عملية تداول الكتاب التاريخي بين الجمهور يعزز المعرفة التاريخية... فقد حان الوقت أن تخرج من بروجها لكي تلامس عامة الشعب لان بناء الوعي التاريخي من الأدوار المنوطة بالمؤرخ... فان عبئا كبيرا وثقلا في المسؤولية يقع على عاتق المؤرخ... فالتراجع أو الانتكاسة في كتابة تاريخ الأمة مرده عدم نجاح المحاولات التي بذلت حتى الآن في كتابة التاريخ العربي. فقد أخذت الكتابة منحى المحلية المفرطة والموغلة في الايحادية والتفرد...

رناد الخطيب عياد, المؤرخ العربي عدد 49, 1995, ص11-17

ملحق رقم 12

تجربة مؤرخ تونسي

... أبدأ بالتذكير أن المؤرخ هو إنسان محيطه وعصره, فهو يخضع للتكيف في الزمان والمكان ويعالج حقائق الماضي بمشاغل الحاضر...

والى جانب هذه المشاغل هناك تأثيرات أخرى قد أثّرت مباشرة على عملي كمؤرخ: المدرسة الفرنسية في مستوى المعهد والجامعة. فقد علمتني هذه المدرسة مقاربة التاريخ من الأسفل ومن ناحية الجمهور...

إلى هذه الاختيارات يضاف تأثير الماركسية التي كانت شائعة آنذاك, فتولدت عندي حساسية للقضايا الاقتصادية والاجتماعية والتحمس لبعض النظريات الماركسية الجديدة كنظرية "نمط الانتاج الآسيوي" أو أطروحة "اقتصاد–العالم"... ولم يمنعني ذلك من الاستعارة من مصادر أخرى لأنماط من التفاسير...

لقد تمركزت قراءاتي على الإنتاج والكتابات المخصصة للدولة والسلطة... كما ساهمت الدراسات الإسلامية وعلم الاجتماع والانتروبولوجيا في بلورة الإشكالية في إطار أطروحة الدولة...

وفيما يخص التوثيق اخترت مقارعة المصادر المحلية والوثائق الأوروبية... فقد كنت مقتنعا بضرورة استعمال أدوات عمل العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى لتحليل حقائق الماضي...

Chérif (MH), Pratique d'historien dans la Tunisie d'aujourd'hui, Alif. Tunis 1995. P.113-120

(تعريب المؤلف)

ملحق رقم 13

الأنترويولوجيا والتاريخ

لا بد من ملاحظة أولية وهي أن حدّا واضحا قد فرّق لمدّة طويلة بين الأنتروبولوجيا والتاريخ. وهذه التفرقة – على غرار ما وقع بالنسبة لعلم الاجتماع – راجعة إلى التقسيم السائد في القرن التاسع عشر للمجتمعات وإقصاء ما كان معتبرا شعوبا "همجا" أو "متوحشة" من الحضارة الغربية ومن الزمن والخطاب التاريخي الأوروبي في وقت كانت تحاول فيه الإمبريالية التوسعية إخضاع هذه الشعوب وإقحامها في الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية. وكأنه لإبعاد هذه الشعوب عن التاريخ ولإيجاد شرعية إخضاعها للأمم المتقدمة قد بعث علم خاص بها هو الأنتروبولوجيا...

فإلى حدود الخمسينات كانت التفرقة بين التاريخ والأنتروبولوجيا واضحة على مستوى الأهداف: فالأول يهتم بالماضي التاريخي الأوروبي والثاني بالمجتمعات" الغريبة " التي عرفت كمجتمعات بدون تاريخ, كما يهتم أيضا بالحضارات التقليدية (عربية– صينية–تركية...) والتي تعرف نظما تاريخية مغايرة للنظام التاريخي للمجتمعات الغربية. كما تبدو التفرقة بين المادتين أيضا على مستوى مجالات البحث: فالتاريخ يحاول الوقوف على التسلسل الزمني للأحداث وإعادة بناء مراحل التطور, في حين تحاول الأنتروبولوجيا فهم بنية ووظيفة المؤسسات الاجتماعية في مجتمعات تتميز أساسا بالاستمرارية والتكرار.

وبداية من الستينات بدأنا نلاحظ تقاربا كبيرا بين المادتين نتيجة تجدد كل واحد منهما من الداخل...

Kilani (M), *Introduction à L'antropologie*, p. 103-104

(تعريب المؤلف)

ملحق رقم 14

تاريخ العـــائلة

...اعتمدت الأعمال الأولى للديمغرافيـــا التاريخيـــة علـــى أســـس إحصائية لمعرفة جديدة للواقع العائلي الذي لا يقلّ أهمية عن ســـن الـــزواج والخصوبة ووفيات الأطفال. وحديثا بدأ بعض المؤرخين في تجاوز المقاربة الديمغرافية الصرفة لمحاولة طرق الظاهرة في كليتها...

فالمزية الكبرى للديمغرافيا التاريخية أنها أعادت الاعتبار للجمهور, أي لتلك الملايين من المَجهولين أو الصانعين الحقيقيـــن للتـــاريخ لضبـــط مواقفهم من الحياة والموت في إطار أشمل من التعداد الإحصائي... يجـــب أن نستغل اليوم حقائق عائلية أعمق: الحياة الجنسية, العلاقـــات الزوجيـــة, وظائف العائلة, التربية وتعليم الأطفال...

فمؤرخ العائلة لا يكتفي بأن يكون ديمغرافيا, بل هو عالم اجتمـــاع ورجل قانون واتنوغرافيا ومحللا نفسانيا أيضا, لذلك فهو يستعمل مقاربـــات متنوعة ومصادر مختلفة...

Lebrun (F), *La vie conjugale sous L'Ancien Régime*, p. 5-6

(تعريب المؤلف)

ملحق رقم 15

التـــاريخ البيئي

ولا يكاد يكون هناك مثال " للمنظور الجديد إلى المـــاضي" أفضـــل من المثال الذي يقدمه لنا تاريخ البيئة . فصلته بدواعي القلق الملحـــة فـــي عصرنا صلة واضحة غير أنه يحث في الوقت نفسه على إجراء عمليـــات إعادة تقييم أساسية في فترات كثيرة منها ما يعود إلى الماضي السحيق وفي أجزاء شتى من العالم . فتاريخ البيئة ميدان جامع للتخصصات حقا ذو أبعـاد ليس في التاريخ وعلم الآثار والجغرافيا فحسب وإنما أيضا في علوم الأرض والعلوم البيلوجية والطبية, وهو ميدان تمخض عن واحد من أقدم التحالفـات بين التخصصات في الزمن الأكاديمي الحديث إلا وهو التحالف بين التـــاريخ والجغرافيا حيث يوجد التاريخ على الحدود بين العلوم الاجتماعية والعلـــوم الإنسانية وتوجد الجغرافيا على الحدود بين العلـــوم الاجتماعيـــة والعلـــوم الطبيعية وكما تذكرنا دوما كتابات مارك بلـــوك ولوســـيان فيفـــر وفرنـــان بروديل, فان العلاقة الوثيقة بين التاريخ والجغرافيا فـــي النظـــام التعليمـــي الفرنسي, كانت إلهاما رئيسيا مصدره النهج الشامل إزاء فهم الماضي, ذلـك النهج الذي كانوا هم دعاته من خلال مدرسة "الحوليـــات" (Les Annales), والذي كان له تأثير بالغ في الدراسة الحديثة للتاريخ. ولكن هذا التأثير كـــان متبادلا إذ هجر الجغرافيون, شأنهم شأن المؤرخين, تلك الحتميـــة الســـاذجة التي بدأت يوما مغرية أشد الإغراء. وانه لمن قبيل السير على هذا الـــدرب أن دَفع اين سيمونز هنا بقوة, بأن القضايا الحاسمة التي تجابهنا في دراســـة التاريخ البيئي, إنما هيَ في نهاية المطاف قضايـــا ثقافـــة إنســـانية وإدراك بشري.

إن البحث عن أصول التاريخ البيئـــي فـــي المســـارات الرئيســـية لتخصصات تقليدية عدة, أمر له أهميته نظرا لأن الموضـــوع يشـــكل الآن

ضرورة معاصرة ملحة. فشأن جميع العلاقات المعقدة, ينبغي للعلاقـــة بيـــن البشر وبين الكوكب الذي يسكنونه, أن تفهم كنظام يعمل الآن وباعتباره, منـذ بدايته, نتاج تطور وقع على مرّ الزمن, ومن حيث ما يراه المشـــاهد ومـــا ينشأه من معاني وأحكام, كما ينبغي أن يكون فهمه مقترنـــا فـــي آن معـــا, بتعاطف يفيض حماسة وتجرد يكتنفه الشك, وذلك طلب عسير.

ر.آي . مور, عالم المعرفة, عدد 22,

جوان 1997, ص 8-9 (ترجمة محمد عثمان)

ملحق رقم 16

لا منهج للتاريخ

إن التاريخ مسألة فهم. فهو لا يعرف إلا صعوبات جزئية, فليس لـه منهج, ويعني ذلك أن منهجه غريزي: فلفهم الماضي يكفي أن ننظـر إليـه بنفس العيون التي نفهم بها العالم الذي يحيط بنا اليوم أوحياة شعب أجنبـي. فعندما ننظر هكذا ندرك الأصناف الثلاثة للأسباب: طبيعة الأشـياء, حريـة البشرية والصدفة.

على المؤرخ إعادة بناء الماضي ومنطق ذلك لا يختلف في شـيء عن منطق العلوم. فالمؤرخ في هذه العملية يخضع لنفس المعايير كالعلمـاء ولنفس القوانين العامة عند بحثه عن الأسباب كالعالم الفيزيائي أو المفتش...

إن التفسير التاريخي يتمثل في إيجاد نمط من التفسـير يمكـن أن نصفه بالفهم... فالتأريخانية لم تعرف أمثال قاليلي أو لافوازي ولن تعرفـهم. لذلك فان طريقتها لم تسجل أي تقدم منذ هيرودوت أو توسـيديداس ولكـن الذي سجل تقدما ضخما هو النقد التاريخي...

Veyne (P), *Comment on écrit l'histoire*, p.132.134

(تعريب المؤلف)

ملحق رقم 17

الإخلاص والتاريخ

أنا لا أستطيع أن أتخلص من عقيدتي لأنها جزء منـــي، لأن كـل إنسان يدرك ما يدرك انطلاقا من تكوينه وعقيدته، لكن فـي نفـس الوقـت أحاول أن أتجاوز عقيدتي، آخذ بالاعتبار آراء وكتابات من هو على طـرف نقيض مني في مستوى الآراء والعقيدة والكتابات... لكن أن تقول لي أننـي أتجرد من نفسي، فهذا لا يستطيعه أحد كل ما يستطيع الإنســان فعلـه هـو الاجتهاد...

ذلك أن التاريخ ككل العلوم الإنسانية وغيرها تتوزعـه مذهبيـات ومدارس وتخترقه خصومات عديدة وحادة أحيانا، كل مؤرخ محترف يتقـن صناعته يعرف ذلك... لكن القاعدة التي لا يشذ عنها أي مـؤرخ محـترف جدي هي أن الوثيقة مقدسة والتأويل حرّ. وحرية التأويل وما يتبعـها مـن خصومات بين الأفراد والمدارس والمذهبيـات ضريبـة ضروريـة لتقـدم التاريخ. فالتاريخ لا يتجدد باكتشاف وثائق جديدة بقدر مـا يتجـدد بتجـدد الأسئلة التي يلقيها المؤرخ على الوثيقة والتأويل الذي يتبع ذلك فبدون حريـة وخصب التأويل ينقلب المؤرخ إلى مسجلة أو إلى حاك يحكـي، وهـذا مـا حدث بالفعل لجلّ المؤرخين القدامى، فهم إما رواة يروون أو نقلـة ينقلـون بمقدار يزيد ويقل من الاستيعاب والأمانة، فمنهجيتهم منهجية المقص ووعـاء الغراء، وأمانتهم تقاس بأمانة مقصهم.

محمد الطالبي، عيال الله، دار سراس للنشر،

تونس 1992، ص 51-52

ملحق رقم 18

تـــاريخ الفنّ

يمثل تاريخ الفنّ إحدى أجمل الإبداعات القرن التاسع عشر وبدايـــة القرن العشرين فحاضرات مجهولة قد عرفناهـــا عـــن طريـــق رحـــالات الاستكشاف أو الحفريات أو دراسة الآثار... وفي آن واحـــد تعمـــل الأمـــم الكبرى الحديثة على دراسة ماضيها الفني وتعتمد في ذلك على طريقة وفكر نقدي يمكنانها من فهم طبيعة ذلك الماضي وكتابة تاريخه. فقد تفتحت اليـــوم الأعين على جمليات كانت منسية...

فبدراسة فنون الماضي يدرك المرء أنّ الشعوب لم تكن أبدا منعزلـة عن بعضها البعض.

إن تاريخ الفن يثري الأدب والتاريخ. فالفن الإغريقي – على سـبيل المثال– يدعم كل ما نعرفه بواسطة الشـــعراء والفلاسـفة عـن العبقريـة الهيلية...

عديد البلدان ما عرفناها إلا بفنها. فبلد كهولندا لم يشتهر بأدبائه بـل برسـامية أمثـال روسـدال (Ruysdael) وهـوش (Hooch) وروبرنـت (Rembrandt)...

إن الفن لغة عالمية وله خصال تربوية لا تقل عن الآداب. فالفنـان العظيم يبرز جمال الكون ويعلمنا ما قد لا نقدر على رؤيته...

Mâle (E) *Histoire générale de l'art*, I, 5-8

(تعريب المؤلف)

ملحق رقم 19

ما الزمن الحاضر؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال يجدر تدقيق نقطة اصطلاحية: لماذا أحدث في السبعينيات مصطلح "تاريخ الزمن الحاضر" في وقت كان يتأسس فيه تدريجيا مصطلح منافس هو "التاريخ الآني"؟ السبب في نظري يكمن في عجز علمية ذلك المصطلح الأخير... والواقع أن المصطلح التقليدي والقائم أنذاك هو "التاريخ المعاصر" المرتبط ببرامج التعليم الثانوي والعالي. ولكن بحكم جعل هذا التاريخ المعاصر يبدأ مع الثورة الفرنسية فان المصطلح يفقد من معناه كلما تباعد الزمن عن حدث 1789... هكذا حل مصطلح "الزمن الحاضر" مكان مصطلح "التاريخ المعاصر".

ولكن الصعوبة تكمن في تعريف الحاضر, فهل يشكل مجالا زمنيا ضئيلا ومجرد نقطة عبور؟ فخاصيته هو أنه يزول في اللحظة التي يبدأ فيها... وهو ما يطرح إشكالية الزمن بأبعاده الثلاثة أي الماضي والحاضر والمستقبل. فلئن كان الماضي قد فات ولم يبق منه إلا الذكرى, فان المستقبل لم, يحل بعد ونحن في انتظاره. أما الحاضر فهو التخلص مما كان مستقبلا وسيصبح ماضيا... وفي نظرنا فان الزمن الحاضر هو زمن التجربة المعيشة... فلا يمكن أن نقول أنه يبدأ في 1914 أو 1945 أو 1989... فهو يعني الماضي القريب بخلاف الماضي البعيد... فالمؤرخون مدعوون إلى عدم التفريط في هذا الماضي القريب لصالح العلوم الاجتماعية الأخرى حتى ولو أنه من الطبيعي أن يهتم بهذه الفترة أيضا علماء الاجتماع والاقتصاديون وعلماء السياسة...

Bédarida (F), Méthodologie et pratique de l'histoire du temps présent, *correspondances. n°42,* 1996, p. 4-5

(تعريب المؤلف)

ملحق رقم 20

هل هو تسارع أم نهاية التاريخ؟

... لما كان هيقل السباق في طرحه لتسارع التاريخ عبر نظريته عن العنف, فانه أيضا هو الذي أنكره في تنظيراته بأكثر ما يكون من البراعة. وذلك عندما دفع به من جهة إلى المجال التاريخي الماضي, ومن جهة أخرى عندما نقل فكرة التسارع إلى مجال الفاهمة (entendement)...

بإمكاننا طبعا القول مع المؤرخين بفكرة كون الثورة الصناعية المحرك الأول للتسارع. فخلال قرون لم تتغير كثيرا حياة عامة الناس, من هنا أيضا ولد النموذج الثوري, وهو عامل تسريع يستند إلى الخيال وقد أدى إلى اضطرابات وحروب مترابطة جدليا. وقد أحدثت حركة لولبية متظخمة من الاضطربات والحروب.

هذا التطور للتقنيات ليس فقط مترابطا مع إنتاج الأفكار بل أيضا مع تسارع وسائل انتشارها... واليوم مع تحديث وتنويع الوسائل التقنية للاتصال أصبح انتشار الأفكار أمرا حاسما أكثر بكثير من تنقل الأشخاص والأشياء... فبواسطة تطور الاتصالات اضطربت التصورات في العالم وتقاربت مجالات الأفكار خالقة توترات وظواهر تقليد في التصرفات. وكنتيجة لهذه العملية التقنية – العقلانية ولد ما يشبه الرأي العام الدولي.

هذا التسارع للانتشار هو أيضا مترابط بحركة العقلنة وعلمنة الأفكار... فالتمدين من جهة وتسارع الحركية الاجتماعية من جهة أخرى خلقا عالما تتناقص فيه آفاق الناس الثابتة وتتزايد الطموحات الشخصية والجماعية...

إن تفاقم الحركات القومية في هذا الإطار ليس عاملا "خارجا" عن حركة الأفكار, بل هو التعبير من جهة عن هذا الانسلاخ عن الأرض, ومن

جهة أخرى تعبير عن هذا التوافق بين الناس حول مبادئ أخلاقية – ثقافيـــة تتجه بنجاحات متنوعة لإيجاد تجسيد لها في الدولة...

هذا الواقع التعددي هو بالتحديد الـــذي يطـرح مشـكلة بالنسـبة للمنظرين الذين يوقفون التاريخ عند انتصار مبدأ الديمقراطيـــة – الليبراليـــة في الأذهان... والمشكلة هي أن التاريخ لا يتوقف.

Yves Roucaute, *le trimestre du Monde, 1991*,

الفكر العربي المعاصر، عدد 94-95 ,1992,ص*106-110.*

المحتويات

المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية

2000

هذا الكتاب يتعرّض إلى سبعة محاور في علم التّاريخ : مفهومه - فلسفته - طرق كتابته عبر العصور - علاقته بالعلوم الأخرى - المدارس التّاريخيّة ووضعيّة الدّراسات التّاريخيّة اليوم.

فالتّاريخ لم يعد ما كان عليه بالأمس. لقد تطوّرت المفاهيم وتجدّدت المقاربات وتشعّبت محاور الاهتمام والقضايا المطروحة مع اشتداد الجدل بين المؤرّخين حول وضعيّة هذا العلم اليوم وما يعانيه من أزمة في نظر بعضهم.

إنّ دراسة التّاريخ تساهم بقسط وافر في فهم ما يجري من حولنا من أحداث جسام تتمّ بنسق سريع جداً خاصّة منذ منتصف التّسعينات.

فريد بن سليمان من مواليد سنة 1948 بالمعمورة، أستاذ مساعد بكليّة الآداب منّوبة. يدرّس التّاريخ الاسلامي ويهتمّ خاصّة بتاريخ بلاد المغرب وحضارته في «العصر الوسيط»

صورة الغلاف : مجموعة نقود تونسيّة بمتحف باردو

ت د م ك : 9973-948-38-6 الثمن : 12 دينارا

